غادة السمان

حبّ

منشورات غادة السمان

حُبّ

لوحات الكتاب بريشة الفنان الكبير
رفيق شرف

المشرف الفني : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
لوحة الغلاف الأول : للفنان هنري روسو
صورة الغلاف الأخير : المؤلفة ، بكاميرا الفنان حسن حوماني

منشورات غادة السمان

بيروت — ص . ب ١٨١٣ ١١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى : ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣
الطبعة الثانية : ايار (مايو) ١٩٧٤
الطبعة الثالثة : نيسان (ابريل) ١٩٧٧
الطبعة الرابعة : كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩
الطبعة الخامسة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
الطبعة السادسة : تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٨١
الطبعة السابعة : شباط (فبراير) ١٩٨٣
الطبعة الثامنة : ايلول (سبتمبر) ١٩٨٥
الطبعة التاسعة : آذار (مارس) ١٩٩١

أهدي هذا الكتاب ،

الى كل الذين كان يمكن أن أحبهم لو عرفتهم .

الى الرجال الرائعين ، المجهولين

والمدن النائية التي لم أطأها ،

والجبال ، والنجوم ، وكائنات الطبيعة العظيمة المفترسة والأليفة التي لم أمر بها ،

الى الأنهار ، والغابات ، والثلوج وشروق الشمس في قرى لم أزرها...

الى كل أولئك الذين كان يمكن أن أحبهم لو عرفتهم ...

غاده

مقدمة

يا من تقرأ سطور هذا الكتاب ،

إنك ترحل الى قلبي ،

تتجول في ركن منسي من زواياه .

ومع كل صفحة تطويها ، تفتح باباً الى كهف الماضي .

وكلما قلبت الصفحات ، كلما أوغلت في أحشاء زمني الضائع . فلحظات الحب — التي تلقي القبض عليها سطور هذا الكتاب — ارتأيت أن ارتبها ابتداء من الحاضر ، وعودة تدريجية الى الماضي ، ماضي قلبي منذ خفقات المراهقة الأولى .

وأعترف بأن بعض ما ورد في الكتاب سبق نشره باسم مستعار ، والباقي باسمي (الشرعي) .

واعترف بأنني قد لا أكون (معجبة) بكثير مما يضمه الكتاب خصوصاً في (كتاباتي) الأولى القديمة ، لكنني ارتأيت أيضاً نشرها كما هي دون أي تعديل أو تحوير . وهو موقف قررت اتخاذه نهائياً بالنسبة لكل نتاجي القديم وبصورة خاصة ما خططته في مرحلة المراهقة سواء من قصص أو خواطر ... وهو موقف اتخذه عدد كبير من الكتّاب لدى إعادة طبع

نتاجهم القديم ... وأعتقد أن الاصفهاني لخص الداء والدواء في قوله : « إني رأيت انه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن . لو زيد كذا لكان يستحسن . لو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر » .

بيروت ليلة ٢٣ ــ ٨ ــ ٧٣

لأنني أحببتك ..

ها أنت تجثم فوق كل لحظة من لحظات حياتي كما الليل المليء بالأسرار يجثم فوق صدر المدينة ...

ها أنت تحتل غرف عمري المزدحمة بالرجال والذكريات ، تطرد الجميع من النوافذ كما الشمس تطرد الأشباح حين تضيء ...

ها أنا امرأة ضجرة تنام سأماً فوق فراش محشو برسائل الحب التي كتبها العشرات لها ، ها أنت تأتي تشعل النار في رسائلي وفي ذاكرتي وضجري ... لا أملك إلا أن أتبعك عارية القدمين حتى آخر العالم ... ولكنك يا حبيبي كطائر البرق ، تمر بي سريعاً كالشهقة ... وتمضي ... وتترك في صدري غيابك مثل سكة محراث تشق صدر الأرض ... مثل نار تلتهم غابة .

* * *

غيابك هو الوجع . حضورك كحضور الأعجوبة ، ما تكاد تأتي حتى تختفي ، وتخلف في قلوبنا الى الأبد ذكرى حضورها ... حياً كاوياً جديداً في كل لحظة ..

ها قد استطعت أن تغرس حبك في قلبي ، نابضاً في كل لحظة ، ومنقار نورس الحب يظل ينقر في القلب ... كل لحظة ... كل لحظة ...

أتساءل : كم يمكن احتمال ذلك ... الحب الفاشل موجـع ، ولكن الحب المتبادل أكثر إيلاماً .. لا شيء يشفي غليله سوى الاحتراق المشترك أو الموت المشترك ... ولا نملك حتى حق الخيار بينهما ...

* * *

أيها الشقي .

لو لم تحبني لاستطعت أن أمسح صورتك في عيني كما أمسح البخار عن زجاج نافذة الذكرى .

لو لم تقل لي بحرارة : لقد استطعت أيتها الغجرية أن تنفذي الى ما تحت جلدي .. الى أعماقي ...

اوه أيها الشقي ...

ليتك لم تحبني ...

ليتني لم أنفذ الى ما تحت جلدك – كما تقول – .

فقد صرت اليوم سجينة جلدك وأعماقك ...

لم أعد أملك إلا أن أنبض مع عروقك ... أتدفق فيك ، أحيا وسط تياراتك الداخلية ...

اذا غضبت ، كان العالم هو الغضب . وان فرحت أرقص فرحاً تحت جلدك ... وإن رحلت ، ترحـل ذاتي عني معك ... وتخلفني في صمت الليل مثل صدفة ينوح فيها الصدى ، مثل هيكل فارغ لكائن مات منذ زمن بعيد ولم تبق سوى قشرته ...

دونك أنا قناع ... حقيقتي ترحـل معك ... دونك أنا جثة سريـة الموت ، وحياتي تخفق سجينـة ذكراك ، كأجنحـة الفراشة تحت كوب زجاجـي .. كف عن حبي .. أتوسل اليك كف عن حبي .. أشتهي حريتي ... أخرجني من تحت جلدك ومن مسامك .

* * *

اوه أيها الشقي ...

ليتك لم تقل لي انك بكيت لأجلي ... انك بكيت كالأطفال وهتفت باسمي مراراً وسط الليل المقفر وكانت دموعك سائلاً نارياً كاوياً ... ها دموعك تغرقني ... حزنك يفتتني ... مخاوفي عليك ومنك تفور في رأسي كثعابين الماء السامة ... أية دوامة بعثنا ؟... أية مأساة ابتدعنا ؟ أية لعبة شطرنج جهنمية لا تنتهي مارسنا ؟

* * *

« احبك » ... « احبك أيتها الغجرية » ... قلتها لي فجأة وصمتَ طويلاً . وصمتُّ أنا أيضاً ... وعرفنا كيف يصير الصمت شعراً ...

* * *

وجذبتني اليك لتختلس قبلة . قطفتها من شعري بسرعة وعدت الى مكانك في المقعد كأن شيئاً لم يحدث ..

أيها الشقي ... « بعد أن تقطف زهرة من غصن ، يعود الغصن كما كان . أما القلب ، فلا » ...

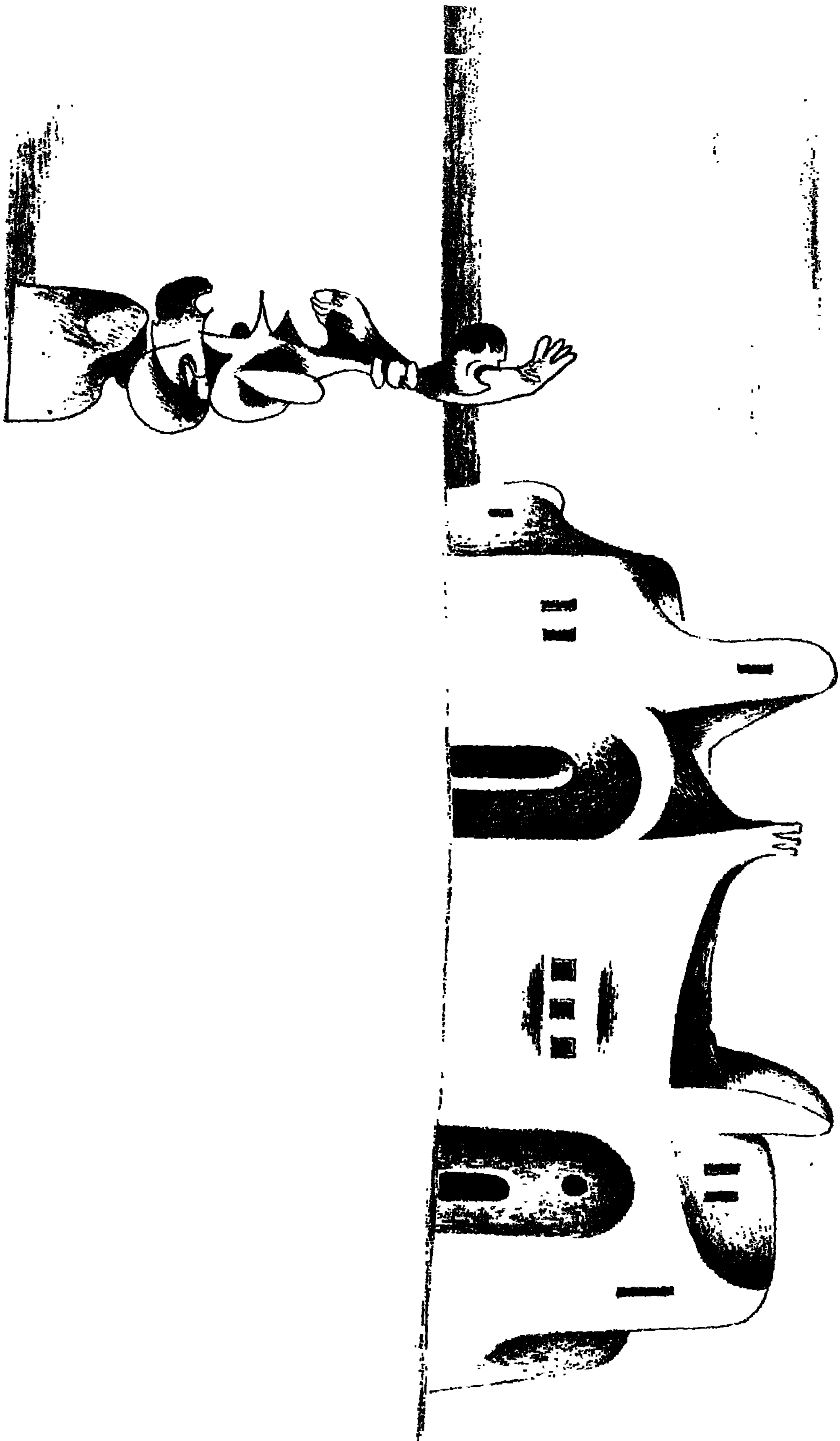
* * *

سأظل أكتب اليك ...
لأجل أن لا ننسى ،
لأجل انني أحببتك ،
لأجل انني أحببت ...

١٩٧٣

في عنق الزجاجة .. كان لقاؤنا !

بللتني بالليل الحزين الماطر ، وبحنانك ..
وأحببتك ...
وها أنت عبثاً ترحل عن لحم ذاكرتي مثل نصل سكين يغادر جرحه..
ترحل ؟
تغطس في ظلام النسيان ؟..
انطفيء في حياتك كشمعة حاصرتها الرياح ؟
كالعباءة ، لملمتك حول جسدي ..
كالكفن ، رضيتك للقليل الذي تبقّى لي .
يا حبيبي ،
بالنحل ملأت رأسي ،
بملايين الأسئلة التي لم تكن تخطر لي ببال ...
جسدي لفافات أسلاك شائكة .. كيف استطعت اختراق أسواري ؟
في عنق الزجاجة كان لقاؤنا ...
لا قبل ذلك ، لا بعد ذلك ، لماذا ؟
ماذا أقول لك ،
غير ان قلبي يحصده الحزن بمنجل فراقنا ...



الحزن ،
يزحف إليّ من كهوفه غير المنظورة ،
اسقط تحت سنابكه
اسقط ، اسقط ،
غيابك — الحضور مقصلتي ..
اسقط نازفة الجرح السري ..

* * *

حبنا .
زهرة الساكورا اليابانية ، تنبت مع الفجر ، وتموت مع الغروب ...
حبنا .
ها أنا أقطر حزناً .
أعضاء جسدي أغصان شجرة تنزف الحزن والمطر والشوق ...
حبنا ،
اعدتني الى عصور الموت حباً ،
الى عصور الفروسية ،
والنساء اللواتي يركضن خلف الرجـال الأقوياء حتّى حدود الحرب والزلزال ..
اعدتني ،
الى عالم اللغة الملونة ،
الى مفردات كالشوق والانتظار والحنين ، الشوق ، في عتمة الضجر ،
ماذا تبقي سوى ظلك ؟
افتقدك ،
والافتقاد ... (هل تذكر ..) ..
والافتقاد ، عذاب

كالعذاب الذي أحسه أمام كل الأشياء الجميلة وكل شيء رائع مثلك هو شيء لا انساني ، ناء ، مستحيل الامتلاك ، كله تحدٍّ مثل تماثيل الآلهة العتيقة السرية .. -

* * *

أيها الشقي ،
وطني معطفك سوط ، وشوارع مظلمة مغسولة بالمطر والخمر الرديء ،
ماذا تملك لي وأنت بعيد هكذا ؛
سوى حفنة جديدة من الحزن ، والموت الأخرس ؟

* * *

هل تصدق ،
انني استطيع أن أودعك بصمت سنديانة يقطنها الطير النادر تارة ثم يغيب.
هل تصدق .
انني سأحتضنك بلا مبالاة النسيان ،
سألقاك ، باستهتار السياح في « باص » سياحي واحد ،
سأحييك .
كما المضيفة في طائرة تلقي تحية المساء ، بحياد وتهذيب ،
هل تصدق ،
ان رحلة الزحف فوق الزجاج المطحون ،
انتهت ،
والوجع بك يحتضر ويلفظ آخر أنفاسه ؟
خالد وجعي بك ،
طويل احتضاري كما النار التي التقطت طرف غابة لامتناهية .
أحبك ...
أي نصر ، وأي هوان
حين تكون بعيداً هكذا ،

وتحتل أيامي بصلف هكذا ،
وابحث عنك في الشوارع
وأنا أعرف أنني لن أجدك ،
وأبحث عنك بين الوجوه ،
ويدهشني لماذا أحب وجهك ، من بين مئة ألف وجه طالعني هـذا الصباح ...
لماذا أنت ، أنت بالذات ؟..

***

حتى يأتي صوتك ،
ينهمر كما الاعجوبة ،
كما ألحان «باخ» في الكنائس عبر الارغن ،
كما الدمع المخنوق في سنوات القحط ،
كما الرسائل المجهولة الموقعة بالدمع وآثار الكحل ،
حتى يأتي صوتك
وتتهاوى كل القيم ،
المال ، والحظ ، والآخرون ،
تبقى أنت ،
وخرائط العالم نركض فوقها ...
وسهوب العالم نرحل عبرها ،
وحبنا الصادق كطفل ، الهش كطفل ، المليء بالطاقة على الاحتمال كطفل ،
وتبقى أنت ،
وحبي لك ، كوكب لا ينطفيء ...
فتعـال ...

١٩٧٣

كان يا ما كان .. حب

يا حبيبي

ما أحببتك قط كما أحبك الآن لأنك جعلتني أكفّ عن حبك !

كيف استطعت تحقيق معجزة كهذه ؟..

كيف ، هكذا فجأة انقطع الوتر المشدود الذي كانته أيامي معك ، ولم تعد ضرباتك توقع عليه غير لحن الصمت اللامبالي ؟

أية فرحة !

أن تشهر سلاحك ؟

أن تحشو غدارتك ، وتمسح الصدأ عن أوسمتك ، وتجيء مطالباً بمزيد من اقطاعية حبنا .. تطالبني بمزيـد من الضرائب العاطفية ، ومزيد من الولاء ؟

وتتهددني كالخليفة :

... أو ، ردي إليَّ أيامي ، ردي إليَّ أصباغي ولوحاتي وسطوري وهمساتي ، وكل ما تبقى من تلك الليالي المبحرة في أحشاء الزمن ..

أن تنزلق مـن قمم الصمت الى وحـل تقديم كشوف حسابات لأيامنا وليالينا وهمساتنا المسروقة ؟

أن تجيء جافاً كورقة نشاف لتمتص من عالمي الغامض ما يخيل اليك اني لم أمنحه بعد لك ؟

أن تجيء مثل المرابي (شيلوك) لتقتطع من لحم ذكرياتنا (الفائدة) المترتبة على ما كان ؟

أن تجيء كموظف مصلحة الضرائب ، عبثاً تلملم بقايا رعشاتك على قماش لوحاتك المنسية في بيتي ، أيام كانت شرايينك ريشة،ودمك أصباغاً تريقها في كهوف عمري جدرانيات وفاء ؟

أن يسقط عن أناملك سحر البحث الصادق عن يقين (أناملك التي كانت ترتعش في غموض عالمي كأنامل عاشق أعمى يبحث في الزلزال عن وجه حبيبته بين آلاف الوجوه النازفة والهامدة) ؟

أية فرحة ! أية فرحة أن يدور ذلك ! (كنت ستظنني أقول : أية فجيعة ؟) ... أمام المعجزات ، أياً كانت ، هنالك دوماً فرحة ...

حبي لك لم يكن المعجزة . المعجزة انني كففت عن ذلك ...

***

أية فرحة !

فأنا منذ كان الزلزال الرائع ...

أي منذ التقيت بعينيك الضالتين ، وصار ذراعاك مجذافي ، وصدرك مركبي ، وهذيانك بوصلتي ، لم أقل لك قط انني أحببتك ...

ولم أقل لك قط انك ظللت طيلة ايام وليال هاجسي وعذابي وطموحي ومقبرتي وحلمي منذ كانت تلك اللحظة الحلم — المجزرة ..

كلمة أحبك أحسستها مدنسة ومهترئة مثل عتبة خمارة رخيصة يدوسها الجميع.... ولم أقلها ... ولن ...

وها أنت ،

تخلعني عنك كما يخلع المالك الجشع عن داره مستأجراً كف عن دفع قيمة الايجار ...

أن أقطن في صدَفة حبك السحرية، مقابل أن أقول لك كلمة مهترئة هي «أحبك» ؟... لن أدنس عطائي ، ولو غادرت الصدَفة ، وأبحرت من جديد وحيدة في ظلمات بحار الغربة وكآبة مغاورها المسكونة بكائنات الرعب والصمت ..

أية فرحة ...

أن أكتشف ان البركان الذي أضاء عالمي وألهبه لم يكن سوى جبل طافٍ من الثلج مر ببحر ضياعي ، فكان لسع الجليد للوهلة الأولى كلسع النار ...

أية فرحة ...

أن تنطفىء الشموس في عينيك ، وينعتق كوكبي عن تيهه المخمور في مدارات عمرك النائية ..

أية فرحة ..

أن تلملم عن جسدي (الذي كان حتّى عرفتك كوخاً مهجوراً يسكنه عنكبوت الضجر) بصماتك ورماحك وفيضاناتك ...

أية فرحة ..

انك لم تعد وشماً فريداً لا يمحى فوق لحم ايامي ... غامضاً كنقوش أقوام منقرضة ... مليئاً باللعنة كجوهرة سوداء في موضع عين مومياء فرعونية ..

أية فرحة ....

انك أغمدت حقدك في صدري أعمق مما أغمدت حبك .. وانني لن أقضي بقية عمري أبكي وثنك الذي لم يكن سوى فزّاع طيور محشوّ بالقش منصوب بحقل مررت به مرة في ضوء القمر ...

وخطوط كفيك التي كانت أبداً خارطة عالمي ، ودروب ضياعي التي لا أملك إلا أن أركض فيها وحيدة ، ألملم ذاتي عن أرصفتها المفروشة بالثلوج والظلمة والرجال المخمورين ، عادت لتصير مجرد كف أخرى من

ملايين أيدي الرجال ... ولم يعد صعباً علي أن أصدق امكانية ارتدائك لقفازات ... (القارات لا تلفها القفازات) .. وملامح وجهك شبه الغاضبة شبه العاتبة أبداً للذنب سري لم أرتكبه، لن أقضي بقية ايامي أحل ألغاز كلماتها المتقاطعة ، ولن أجوس فوقها بشفتي ولن أغسلها بدموعي علني أعثر على الكلمة المفتاح ...

صرت أعرف الكلمة المفتاح .

انها الكلمة نفسها . « رجل » . ولكنه سيكون هذه المرة رجلاً « آخر » !...

أية فرحة يا حبيبي ، أن تكف عن ان تكون حبيبي ، دون ان تدري قط كم وكم كنت حبيبي !

لا تعد . فحبي ليس مقعداً في حديقة عامة ، تمضي عنه متى شئت، وترجع اليه في أي وقت . لا تعتذر . فالرصاصة التي تطلق لا تسترد .

١٩٧٣

لأنّ الحرية خبز الغجر

يا غريب ...
أنا « فتاة الاوتوستوب » .
جسدي حقيبة سفري .
شعري وسادتي .
أصابعي أقلامي وشموعي . شراييني محبرتي ، ونزفي المستمر سطوري ...
لعل أمي كانت غيمة مسافرة .
أبي كان سيفاً من برق .
عرسهما كان عاصفة ورعداً ، وكان أن نبتت أنا .
كالكمأة على شراع مرمي في محيط الوجود الغامض ، محكوم أبـداً بالرحيل من حيث لا يدري والى حيث لا يدري ..
أنا « فتاة الاتوستوب » . استقررت نهائياً في ارجوحة اللااستقرار ... غجرية بلا مرفأ . لا أبحث عن المرفأ إلا كي اضيعه . مرصودة للرحيل والغربة . أبداً ضالة ولامبالية ونائية كقارة ابتلعها المحيط ...
زائغـة كامرأة من زئبق ... حزينة ومشتتة كأهداب عين اقتلعت للتـو .

لا أفهم توقيتاً إلا ما تفهمه الطيور المهاجرة من ساعة (بيغ بن) لو حطت عليها. ذات مرة لتستريح .. لا أعرف عن النظام إلا ما تعرفه الأرانب عن آداب الطعام .

أنا غجرية ، ولأن الحرية خبز الغجر ،

هل يستطيع حبك أن يكون خبزي وحريتي ؟

١٩٦٩

شيء اسمه .. الحب

اعرف يا حبيبي ، يا زين أشداء هذه المدينة ، يا أوسم رجالها ، وأفتاهم ، وأفتكهم ...

أعرف أنهن يسألنك عني،عن تلك الغريبة،القادمة من حقول الكستناء خلف الجبال مع الريح الدافئة . تلك النحيلة الشرسة كالقطط السيامية المتوحشة ،

يسألنك عني ،

من أنا ؟ وما أنا ؟ أي سر أخفي ، أية تعويذة أحمل لأجتلبك إلي.. لأسورك بجسدي ، وتسورني بجسدك ، ورغم سياط الألسن الحاسدة والناصحة والمذهولة والمباركة والباحثة عن تفسير ، رغم سباقها الى رجمنا ورغم كل شيء ، أقف وإياك منذ أشهر في ساحة المدينة ، متماسكين متمازجين جسدين في جديلة واحدة ، لها خيلاء نخلة شاهقة متفردة في صحراء من القحط ..

* * *

يا حبيبي يا زين الشباب الذي يعرف كيف يمتع ويستمتع بالشباب ، قل لصبايا مدينتك العجائز،اللواتي يثرثرن وينفثن في العقد،كساحرات العصور الوسطى ،

قل لعوانس مدينتك – عوانس نفسياً – رغم زيجاتهن المتعددة ومواهبهن في التفريخ كالأرانب ، قل لأثدائهن المتهدلة كالضروع ، لأنها تسكب اللبن فقط من دون الحنان أو حتى الشبق ،

قل لهن – آدلك عليهن . نقابتهن قرب نقابة الجزارين . يرتدين قفازات الدانتيل وألسنتهن سكاكينهن – قل لهن ، هنالك شيء لا تعرفنه يا سيداتي السادة ، واسمه « الحب » ..

* * *

قل لهن يا حبيبي يا زين الشباب ، الحب يأتي – حين يأتي – كالزلزال : لا يطلب جواز سفر ولا تأشيرة دخول . ولا يطلب يد الأرض من سلطاتها الرسمية !..

قل لهن يا حبيبي يا زين الشباب، الحب يتفجر حين ينفجر كالبركان: لا يطلب اذناً بالإقامة !... أو اجازة تنقيب .

* * *

قل لهن : الحب يتدفق كالسيل ، لا يتوقف أمام أضواء المرور الحمر ، ولا يسمع صفارات الحرس ، ولا يبالي بإشارات السير (ممنوع المرور . طريق مسدودة . منحدر خطر ..) وانما يجرفها كلها في طريقه... ويمضي ...

* * *

قل لهن يا حبيبي ، يا زين أشداء هذه المدينة وأفتاهم .

الحب كالعاصفة ، لا تميز حين تجتاح بيتاً بين الدخول من الباب او من النافذة ، ولا تعرف ان قرع الجرس لا اقتلاع السقف هو وسيلة الدخول ... وقل لهن يا حبيبي :

الحب كينبوع يتفجر في حضن صخرة ، دون ان يسأل (دائرة

الطابو) والشؤون العقارية في أرض من تقع هذه الصخرة وهل هي أرض بور أم ملك مسور أم وقف أميري ...

* * *

قل لهن : الحب فارس اسطوري مصاب بفقدان الذاكرة ... عبثاً يعي من الوجود حوله أي شيء يتجاوز حكاية حبه ... ولكن مملكته بحار عجيبة الملذات ، لا يقتطفها إلا الجريء ، المستسلم لسقوطه الى القاع ...

* * *

قل لهن يا حبيبي

كانت تلك الغريبة ، لا تحمل ميزاناً ولا جداول جمع وطرح ولا تهوى جمع الطوابع ودفاتر الشيكات ... ولا يرافقها مراب عتيق يعقد لها الصفقات . ولا تعرف ألعاب الحواة ، ولا تتقن فنون راقصات السيرك.

* * *

قل لهن : أحبتني ببساطة تماماً كما تتنفس . ولذا كانت تمنح دون ان تدري ، كما تستسلم أدغال الأعماق لصيادي اللؤلؤ والمرجان .. وكانت تأخذ كما تمنح دون ان تدري ، كما تمتص أخاديد التربة التي شققها لهيب الصيف أول زخة مطر تحملها الريح .. دون ان تسأل الغيمة : من اي قطر جاءت وحتام تظل قادرة على الاستمرار في الإمطار فوق حقولها ...

* * *

حدثهن يا حبيبي عن مملكة الحب ، ذلك الفارس الاسطوري المصاب بفقدان الذاكرة ...

* * *

حدثهن عن بحاره الدافئة اللزجة الملونة ، تضمني إليك وأضمك إلي ونستسلم للسقوط بلا خوف من القاع .. نتسلق القاع بلا وجل من دوار الأعالي .. نسقط معاً .. نتمسك بحشائش البحر .. أرقص عارية مع

عشرات الأسماك الهائلــة التي تتلوى معي .. تلتف حولي ، تنزلق فوق جلدي وتزرع الجمر بين عظامي ولحمي ...

* * *

ونرقص صلاة وثنية عجيبة الايقاع ، مجنونة الصخب تسخر من رتابة راكبات الهوادج ... في القاع الحار الملون المزروع بالمرجــان واللؤلؤ ، أرقص وإياك عاريــة مع ملايين الأسماك ، المستلة كالسيوف المنتصبة ، كالرماح الافريقية في دغل يغلي بالثورة وأبخرة الحر المتصاعدة من الشقوق.

قل لهن كيف نركض ، يدأ بيد في القاع دون أن نغادر مكاننا ، فنتحد ، ويغلي كل من حولنا ، وتتفجر اغان مجهولــة غامضة الصراخ والضحك والشهيق والانتحاب كأغاني عرائس البحر الحبيسة منذ عصور في كهوف غيلان الأساطير .. نركض دون أن نغادر مكاننا .. أقول لك اني اطارد طيراً غامضاً لا أعرف اسمه ، وتقول لي انك تطــارد مغارة نارية الشقوق تنفتح على فوهتها ورود قانية الحمرة ، وقبل أن تقول لي اسمها ، يأتي تيار النار الكاوي من أعماق أعماق ذلك البحر الهائج الغامض.. يأتي تيار النار الكاوي محملاً بالخصب والغزارة والنشوة التي تشبه الألم ، ألم لذة الحصاد على حد المنجل .

* * *

ونسجد لتيار النار الكاوي ... ثم هدوء مذهل يلف البحار ، ليــل مدهش السكينة يسربلنا ، هدوء دامع متعب كهدوء أول فجر طلع على نوح بعد انحسار الطوفان.. وفي عينيك يمتد غصن زيتون يمسح عن وجهي عرق الفرح والتجدد ..

قــل لهن ذلك الرحيل في النار الكاوي له قارب واحد اسمه الحب

— ومجذافان همـــا انسانان أحبا — وتلك معجزة في مدينتنا دونها المشي على الماء !

* * *

قل لهن أيضاً اننا كنا نعرف سلفاً ان اسم هذا التيار الكاوي هو نهر اللارجوع ... واننا أبحرنا ونحن نعرف انه نهر اللارجوع .. وهذا أهم ما في الحكاية ..

* * *

لا .. قل لهن باختصار ، وهن يلتففن حولنا ليرجمننا .. كانت امرأة ربما ككل النساء ..

وكنت رجلاً ربما ككل الرجال ...

لكننا أحببنا حقاً ..

وهذا هو الفارق الوحيد. انه الخيط الرفيع كالشعرة الذي يفصل بين ملكوت العمالقة ، ومستنقع الأقزام ... بين أن نكون أحياء ، أو مومياءات متحركة بفعل نوابض — زنبركات — اسمها المجتمع !

* * *

لا ، لا تقـل لهن شيئاً من هـذا ، والا كنت كمن يلقي أشعار شكسبير على قطيع من ضفادع الغدير وببغاواته وسحاليه وحراذينه !...

* * *

لا ، لا تقل لهن شيئاً ..

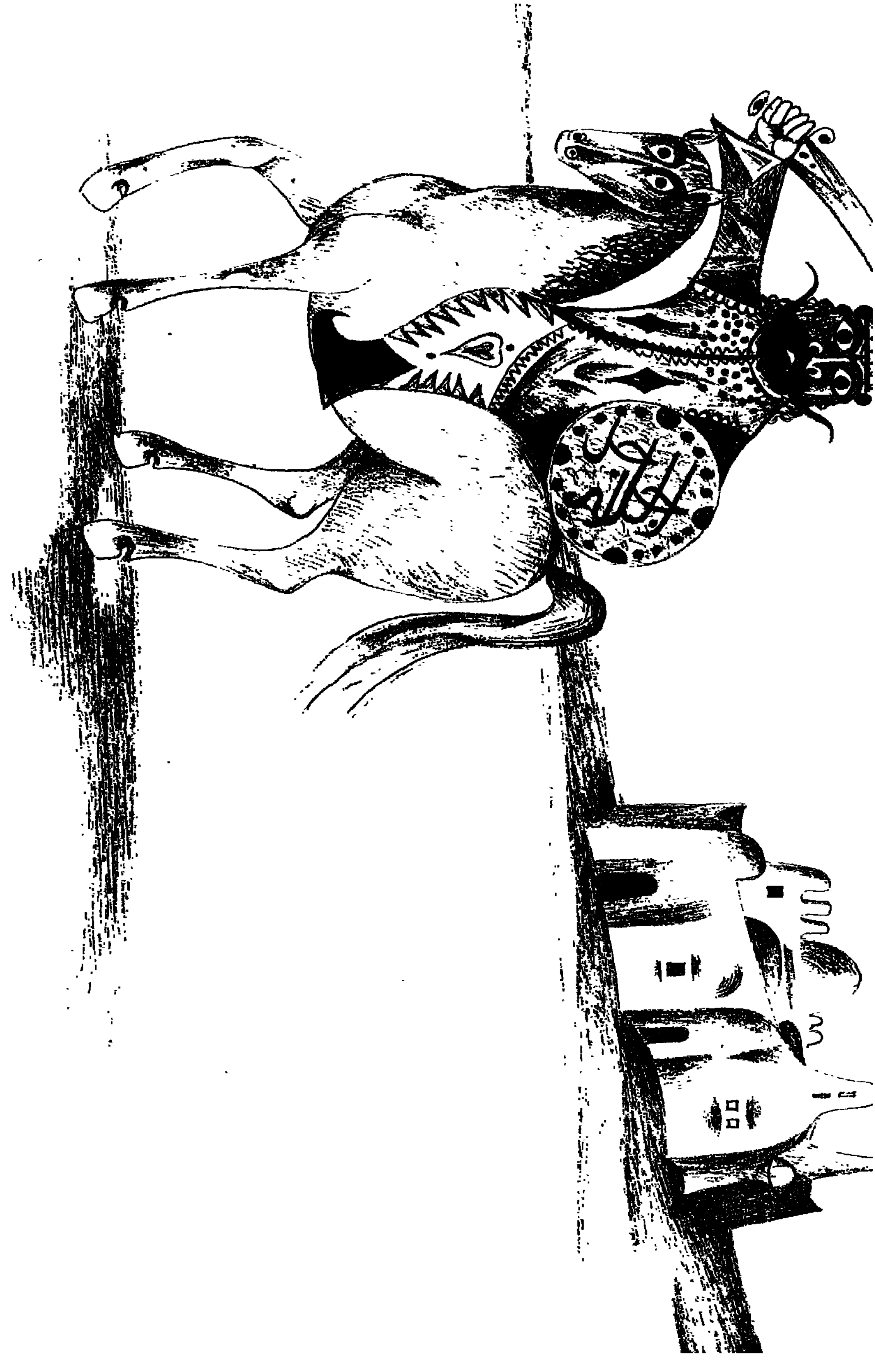
وعن صدرك سأنهض لأرجم كل من لا يحب ... سأرد عليهن بلغتهن الوحيدة، لأن من لا يحب ، لا يعرف القراءة ، ولا الكتابة ، ولا الصلاة، ولا الفرح ، ولا العطاء ، ولا المدنية ، ولا حتى اشعال النار ولا حتى أول مبادىء العصر الحجري الانسانية : حضارة آدم وحواء ...

* * *

عن صدرك سأنهضْ ، لأرجم كل من لا يحب .

ولكن يا حبيبي ليس لـــدي ثانية واحدة أضيعها بعيداً عن صدرك وأهدرها في رجمهم ، — فنحن لا نملك إلا اللحظة ، بـــلا بارحة ولا غد — ، يا حبيبي يا زين الشبابَ ..

١٩٦٩



.. يا غريبي !

يا غريبي الذي سيعود غريباً ...

كصدى جرس ضخم صدىء لكاتدرائية عتيقة ، يقرع ذات فجـر رمادي بارد ، حزناً على طفل شارد ، جمده الصقيع وغسلته العاصفة ، (طفل قد يكون اسمه حبنا) ، كذلك كان وقع كلمات رسالتك الأخيرة في نفسي ...

كلماتك الصادقة ، المحبة ، الوفية الصافية ، الواعية ، النازفة صدقاً منذ مطلعها ... « الى التي ما أحببت سواها بهذا المدى » ...

لو قلت لي : الى التي ما أحببت سواها واكتفيت ، ولم تتبعها بقولك « بهذا المدى » ، لغضبت من مجاملتك المفضوحة ، ولوجدت في سذاجة صنارة الأكذوبة ما يحول بيني وبين ابتلاع طعمها الشهي ...

وكم ازددت إكباراً لك وتعلقاً بك وأنا أركض بمشاعري على حروفك المكهربة بصدقها الممدودة على السطور أبجدية من الأسلاك الشائكة أزحف فوقها بصدري العاري ...

أن تسقط جدران التمويه هكذا فجأة، وان تخلع أقنعتنا وان اشاركك ارتكاب الجريمة ، جريمة ان نقول الصدق ، جريمة ان نواجه الحقيقة ، جريمة (بروميثيوس) ... — ولتغفر لي ولك مناقير نسور العقـاب

ـ تلك هي بداية الحب ـ المأساة ـ الأسطورة .

* * *

قلت في رسالتك ان (التصورات العليلة) لكل منا والشكوك هي ما يفسد على حبنا ـ الأسطورة ، هناءة لحظاته .

لا .

لا أعتقد ان (التصورات العليلة) لكل منا هي السبب (الحقيقي) لداحس وغبراء ايامنا ، لكرنا وفرنا، لخنجرك الذي تقضي نصف ايامك لاغماده في جسد حبي ، والنصف الآخر لمداواة موضع الطعنة، ونزفها ..

وأنا أيضاً مثلك القاتلة القتيل .

بل حتى وأنا أدفع عن نفسي جراد التشكيك الذي تطلقه أحياناً حول صورتي لتكسفها في عالمك ، أفعل ذلك وأنا أعرف انك لو كنت واثقاً من شكوكك لما كبدت نفسك عناء العتاب او حتى الاستفسار .

وانا ايضاً ، قد أشهر على هنائنا سوط مخاوفي .

ولكنني مثلك لا أفعل ذلك بدافع من (التشكيك الغبي) ...

كلانا يتعلل بإلحاح على التفاصيل والمبالغـة في خلق جو مشحون من (الحساب العسير) ليكون لنا شجار صغير نتلهى به ، شجار من ذلك النوع الذي لا يكفي لتدمير علاقة ، وانما يدفع بكلا الطرفين لتأكيدها!...

كلانا يشعل ناراً صغيرة بحيث يعرف انه يستطيع اطفاءها متى شاء...

* * *

ألست معي في اننا نخلق الشجار الصغير خوفاً من ان تصفو سماؤنا بما فيه الكفاية فنرى بوضوح حقيقة ما وصلنا اليه ؟.. ويصعقنا ان نعي الى أي حد توغلت فيّ وتوغلت فيك ؟ ويرعبنا اننا بدأنا نقلع بحبنا في نهر اللاعودة ، نهر « الحب الصادق » ؟ يا أنت،يا أغلى من الموسيقى ، ربما ضار لنا من شجارنا «صمام الأمان» الوحيد لأيامنا المجنونة الهوجاء...

ربما كان كل منا قد بدأ يحب صاحبه بصدق .

بصدق . أي رعب تحمله هذه الكلمة .. أي هول مجيد ..
بدأنا نفقد السيطرة على صاروخ علاقاتنا ...

***

لقد انطلقنا بحبنا ذات يوم صاروخ ملذات وبهجة وأفيون ونشوة ليكون ملجأً لنا ومهرباً من قسوة الضجر والقيود والناس والروتين .. واذا بصاروخ حبنا يصاب بعارض لم نألفه ولم نتوقعه .

انه مرض الصدق ... وبدلاً من ان يحملنا الى ارض الخدر والملذات حملنا الى ارض الحقيقة والوعي .. الى ارض الزجاج المكسر والجمر وصخور النار وبراكين الوحشة والشوق والغيرة واللهفة والرغبة في الاتحاد الكامـل لكل منا .

صار كل منا يريد ان يكون عالم صاحبه ، كل عالمه ، وهو يدري انه لا يستطيع ..

.. ولهذا حينما تقسو أتظاهر بلومك .. لكنني أحس بامتنان حقيقـي نحوك ، لأنك رضيت بأنْ تحمل مسؤولية لحظـة لا مفر من ان تجيء . لحظة إطلاق « رصاصة الرحمة » .. وحينما أقسو ، وأشد بإصبعي عـلى الزناد وأكاد أحمل مسؤولية اغتيال حبنا ، طفلنا المحـرم الوحيد ، مع العذاب أحس بصفاء من اختار اكليل الشوك ومسامـير الصلب .. وأنسى كل ما كان من فقاعات المشاكسة ولعبة شد الحبـل (والغميضة) .... ولا يتبقى في ذاتي إلا فرحة دامعة الصفاء كفرحة طفل في ميتم مر ببابه بابا نويل .. صحيح انه لم يحمل له هدية لكنه رآه حقـاً وتأكد من ان وجوده حقيقة ..

***

يا غريب .. سأقول لك بصدق مـا يجب ان يحمله لنـا ١٩٦٩ : فراق .... فراق نبيل وكبير،آمل ان يكبر حبنا بما فيه الكفاية ليرتضيه .. أن نفترق . هذا كل ما تبقى لنا . فراقنا هو التوأم الملتصق بصدقنا،

لا يمكن لأحدهما ان يحيا بدون الآخر !!

فلا تقل لي انك تضحي بأي شيء وبكل شيء من أجلي .. أتوسل اليك لا تقلها ...

فالحب الصادق حين يكون (محرماً) ، يصبح كفراش فقراء الهنود... كله مسامير وأشواك ...

لذا ،

لا أملك ما أتمناه لك في ١٩٦٩ سوى علاقة أقل صدقاً ، وإخلاصاً، وحباً ، لتهدأ بها وتسعد ..

فقد كانت مأساتنا يا حبيبي اننا عشنا حبنا ولم نمثله .

وداعاً يا غريب . ووداعاً يا أنا ...

١٩٦٩

لو لم يصوب طفلك مسدسه الى عيني !

أيها الشقي ،
يا اسفنجة وحشية الامتصاص في بركة شبابي .
يا قنبلة في أحشائي أحنو عليها حنان حامل على بكرها ..

* * *

رغم بزة الجفاء الحديدية التي ارتديناها ، وأحكم كل منا اغلاقها على ذاته كمقاتلي العصور الوسطى في حلبة التحدي .

رغم خوذة اللامبالاة التي رفعناها على رأسينا رايتي عداء (قبلها كان رأسانا وسادة حب واحدة) ..

رغم دروع الجفاء التي تنكبناها ... وخابية زيت الفرح العتيـق التي ثقبناها ...

رغم متاريس الصمت التي شيدناها ...

رغم ثلوج الوداع التي ندفناها طيلة أيام على ذلك الجسر المحرق المضيء الذي مددناه طيلة أربعة أشهر بين عالمك وعالمي .

رغم أظافر التحدي الشرس التي شرعها كل منا في وجه صاحبه ، حتى استحالت أصابع كفك من خمس شموع الى خمسة خناجر ... وأصابعي من خمسة أوتار الى خمسة سياط .

رغم جثث العصافير الّتي استبدلنا بها نجوم ليالينـــا ... والمشانق الّتي نصبناها من حبال أجراس كاتدرائية حبنا ..

رغم اننا زرعنا طاعون الجليـــد في لحـــم أيامنـــا ، فصارت قارة جلدها برك من الوحل والصقيع ، وحشيشها أهداب أطفال أحرقها التشرد، وأشجارها أطراف مقطعة مشوهة لبقايا قبيلة من المرتزقة ...

رغم اننا (درزنا) بالرصاص أصدقاءنا ، رسل السلام ، وأحرقنـــا أيديهم وأغصان الزيتون في أيديهم .

رغم انا جعلنا من رحلتهم النبيلة عبر سهوب عنادنا مهمة أشد قسوة من زحف جنود نابليون في مجاهل روسيا ... ولم يبق أمامهم إلا أن يرقبوا فأسك ينهال على (انتيجون) ، أنت الذي نزف جدول شبابه طيلة شهور ليبتدع اسطورتها ..

رغم طبول الرفض الّتي قرعناها في الدغل (الذي طالما سجدت أشجاره وغدرانه وزواحفه وكائناته ولوتسه المتفتح على صفحة مياه بركه) لشهقات امتزاجنا ...

(شهقة نشوة الحديد المحمى لحظة التقائه بالماء) .

رغم رقصة الحرب البدائية الّتي مارسناها حول محرقة أوراقنا القديمـة وصورنا،وأعشاش بيوض أفراخنا الّتي مزقناها بأقدامنا الراقصة العارية ..

ورغم النبال الّتي أطلقها كل منا على صوت الآخر في ذاكرته ...

رغم ... ورغم ...

ورغم ما كان ... وما أيقنا انه لا يمكن إلا أن يكون ..

ورغم اننا ظننا ان الرصاصة الـّتي تطلق لا تسترد . وانك لا تستطيع أن تسحل جسداً واحداً مرتين ...

ورغم ... ورغم ...

***

حينما ارتطم صوان عيني بصوان عينيك .. كـــان لا مفر للشرر من أن يعود للتفجر ...

حينما انشق قحط الأيام عن وجهك البريء براء المنجل ، الرقيق كحد شفرة ، وجهك المحفور فوق عظامي كأساطير الجدات ..

عادت دماء أيامي النازفة الى شريانك : موطني ...

وعدنا نتابع أبحارنا العجيب ، الى شواطىء الجمر والزجاج المكسر ..

وتسألني بينما ذراعـــاك تسمرانني الى تـــل صدرك ، منجم الأفيون والحشيش .

– لماذا ؟؟ لماذا ذهبت عني ؟

كيف استطعت أن تقولي وداعاً ؟... هل تحبينني ؟.. وهل .. وهل.. وكيف .. ولماذا ..

وأصمت . من كان يصدق اننا سنعود من جديد طفلين بريئين يتابعان سيرة العبث الى حقول صيد اللهثات والجنون والنشوة .. من كان يصدق انـــني في ثوان استطعت أن انسى اننا افترقنا لأيام .. لو ، لو ، لو لم يسمرني سؤالك .

* * *

اذن علي ان أظـــل داخل خرم الابرة ريثما أفسر ، وإلا فلا عودة الى ملكوت حبنا ...

اذن ، علي أن أقول شيئاً منطقياً (كأن في كل ما كان يدور منـذ البداية ما يمت الى كلمة م ن ط ق بصلة !)

حسناً ، سأقول لك بعضاً من شيء عن كل شيء .

ولأن رأسي مدينة تحملها كاهنة منذورة للصمت ، بيوتها وشوارعهـــا مربعات كلمات متقاطعة ، وأبجديتها طلاسم مجهولة كنقوش لغـــة محفورة على بقايا جزيرة ابتلعها المحيط قبل أن يبتلع الاتلنتيد بعصور ...

لذا ، بهدوء ، أخلع رأسي ، وأودعه أحد رفوف مكتبتي بين الكتب الصفر والفئران وصدأ الفلاسفة .

* * *

والآن ، وقد خلعت رأسي ،

أقف في الريح والهواء غريبة ومتحدية كشوكة منفردة ، بلا بارحة ولا غد ، حزينة كدموع دمية فزّاع طيور من القش ...

نقية كامرأة في كنيسة لم تجد ما تضع في صندوق النذور سوى اسم حبيبها .

قوية وصلبة كجدار قلعة لما تنس أصداء صهيل الخيول وقرع السيوف.

إذن لا أملك إلا ان اكون صادقة .

وعلى جسد الورق ، أرمي اليك بكلماتي الشاردة الضائعة ، كآثار خطوات امرأة تترنح في سهل ثلجي وقد غاص في ظهرها خنجر .

* * *

نعم . قلت وداعاً فجأة . نعم . هربت من سيارتك «صدفة الدفء والموسيقى والحنان » فجأة ...

فعلى المقعد الخلفي لسيارتك يا حبيبي ، كان هنالك مسدس منسي .. مسدس لعبة اطفال ... كان طبعاً مسدس طفلك ..

لعبته التي نسيها على المقعد الخلفي .

ثم ، ثم لا ادري ..

لم تعد لمساتك تزرع الجمر في مسامي ... لم أعد أسمع حديثك الذي يخدرني ويسرقني ...

تسمرت نظراتي على المسدس ... للمرة الأولى وعيت معنى ان تكون أباً .

شاهدته ، طفلك الذي لم أر طيلة عمري ... أحسسته ينظر إلي بعتب وتقريع لا تقدر عليه سوى عيون الأطفال والمحتضرين .

وانطلقت رصاصة من مسدسه الى عيني ...
رصاصة لم يسمعها احد . لم يدر بها احد ...
رصاصة محرقة لها طعم الإحساس بالإثم ...
لو كنتَ تدري معنى مسدس طفل منسي في سيارة ... لما سألت : لماذا هربت ...

* * *

لا شيء أبداً كان يستطيع ان ينتزعك من أنياب حبي .
لا شيء ابداً كان يستطيع ان يملي علي كلمة وداعاً، أسكبها في اذنك وأهرب مشتعلة بإثمي ...
لا شيء،لو لم يطلق طفلك رصاصة على عيني دون ان يدري ...

* * *

لا تقل انك لم تعرف لماذا هربت ، انت يا حبيبي (الرادار) الذي لم يلتقط أحد قط كهارب صمتي كما تفعل أنت .

* * *

لا تسلني اين كنت خلال فراقنا . حينما تغيب ، أكف عن ان أكون.

* * *

أيها العابر في عمري كغمامة على صدر سنبلة .
مناجل العالم كله لن تريحني من عبور ظلك ...
وبيادر الدنيا كلها لن تسكب الألفة فيَّ ، وسأظل سنبلة كـــل حبة فيها دمعة .

* * *

يا حبيبي ، اية مجزرة ان نعلن الصلح ...
يا حبيبي ، لما ظننا ان ارادتنا هي « القدر » افترقنا ..
يبدو ان الحب ، (ذلك الغجري الممـــزق الأوتار الذي ينشد اغانيه لدروب الليل منذ عصور) الحب ، هو إله القدر وسيده ...

ويوم افترقنا ...

لم يكن هناك منتصر او مهزوم .. كلانا كان مهزوماً لأن الحكايـة انتهت ...

واليوم ... كلانا مهزوم لأن الحكاية بدأت تستعصي على الانتهاء ...

يا حبيبي .. أية مجزرة ان نعلن الصلح !.. وأية مجزرة ان لا نعود.. وأية مجزرة اننا قد عدنا ، رغم رصاص طفلك الذي سيظل ابداً يمـزق عيني .

١٩٦٩

لمسامير صليبي... اغني الليلة

يا غريبي الذي لا مفر من ان يعود غريباً .

منذ البدء ، منذ خلق الحزن والسوط ، منذ خلق الصقيع والسعال والظلمة ، والدموع على أحجار الأزقة الباردة ، وصمت الأبواب العالية الموصدة ، وأنا أرتدي حقيبة سفر ، وأعدو من مدينة الى اخرى ، اركض ملايين الأميال في شوارع مسكونة بالخوف والرجال والعنف ، بحثاً عن يد دافئة كتهليلة أم، كبيرة وقوية كسقف بيت، راسخة كمرساة سفينة عادت للتو من رحيل دام قروناً .

* * *

أيد وأيد امتدت إلي ، أنا الغجرية بلا مرفأ ...

عشرات من الأيدي أكثرها كأيدي النشالين والحواة كنت أحسها وهي تمتد لتحتويني باردة ولزجة وزنخة كجسد ضفدع في مستنقع .

بحدس قطة برية تشم السم في الوليمة المغرية ، كنت أعدو من جديد هاربة الى هربي ..

لماذا أيديهم جميعاً كانت كقارة من الملح والكلس حينما تحتويني ؟

* * *

وكانت يدك ... (لماذا أنت بالذات) .. وكانت أيام ...

أيام وأيام ويدك قارة خصب وأعياد .. يدك وطني ..

خطوط راحة كفك صارت خطوط خارطة عالمي ... أظافرك واحتي.
خارج حدود أصابعك ينتهي العالم ، وإذا انزلقت عنهـا لا شيء سوى سقوط أبدي مستمر في فراغ العدم حيث لا قاع ..

شرايين يدك انهاري .

عبوسك صواعقي .

صمتك قحطي . شرودك مجاعتي . كلماتك بوصلتي في بحار ضياعي ...

* * *

أيام وأيام ، وأنا أكرهك بقدر ما أجوعك . (لأنك ستظنه جوعاً طينياً كأي جوع آخر ، لا جوع كوكب مرمي منذ الأزل في وحشة الفلك) .

أيام وأيام ، وأنا أرفضك بقدر ما اشتاقك .

أخافك ، بقدر اطمئناني اليك .

استسلم لقدري في يدك بقدر ما احتج عليه . وأظل أنوس عنك اليك ، محكومة بك كرقاص ساعة أثرية مدقوق الى اطارها ، يركض أجيـالاً دون أن يغادره ..

ولأن ذلك لا يصدّق ، كان من الطبيعي الا تصدقه !

ولأن الكلمات الصادقة تنتحر قبل أن تتسول إقرار أي إنسان بتصديقها — حتى إقرارك أنت ، بل بالذات أنت — .

لـذا ،

معك ، كانت تتكدس في حلقي جثث الحروف المنتحرة ، دون أن أملك لعذابـي شيئاً ...

وتـدمي رئتي حشرجات أبجديتي الموؤدة بداخلها دون أن استعرض نزيفي لك فيالق من (حرس الشرف) في كرنفال الحب ..

لقد احببتك . أية فجيعة !! ... فلأني أحببتك لم أقلها قط لك ..
كنت أرمي بالعبارة للظلمة والريح ، كما يرمى الأطفال غير الشرعيين الى أبواب الأديرة ، سراً ، وبحزن كثير .

* * *

ولكنك ألفت أن ترى الحب تهالكاً . والهوى رقصة توسل في بركة وحل. والشوق استجداء .. (وتلك لغة أجهلها يا حبيبي) ...
ألفت أن ترى الأقزام يسقطون لأجلك .. وكالذباب المحتضر يغرسون كلاباتهم في راحة يدك ...
لذا .. لما خلعت حقيبة سفري وارتديت انوثتي ، لم تلحظ ان شيئاً تبدل .. ولما انكسر الاناء الصيني النادر ، خيل اليك انه كان مجرد كأس أخرى فرغت ... (كانت لحطامها صورة فم يبتسم) .. ولكن يبدو انهم نسوا أن يحدثوك عن فم المسيح المبتسم لمسامير صليبه .

* * *

لمسامير صليبي أغني الليلة .. ما دامت اليدان اللتان غرستها في لحم يدي هما يداك ...
(ترى هل تذكرت يدك وهي تغرس المسامير في يدي تاريخها معاً ؟ كيف كانت تحتضنها أياماً وأياماً بحنان ودهشة طفل يقبض على سمكة ملونة للمرة الأولى ؟) .
لخشب صليبي استسلم .
ما دمت بذراعيك قطعت سنديانة حبنا ، وبفأس الجحود حطبت أخشابها في غاب الفراق .
لظهرك الذي يكاد يغيبه المنعطف الى الأبد ابتسم ،
أباركه بحب كصلاة الأطفال ،
لا يعرف حقداً ولا عتباً ولا ندماً ولا مساومة ..

أباركه بحب كدموع الأطفال ، نقي كغيمة تمطر في أحشاء غيمة دون أن تمس تراب هذا العالم المزروع سكاكين وأنياباً .
لظهرك الذي يكاد يغيبه المنعطف أحاول أن أصرخ : شكراً ..
شكراً لأني عرفتك ...
شكراً لكل ما كان ...

***

يا غريب
وأنت تنفض الغبار عن أرقام الهواتف والعناوين العتيقة في مفكرتك ،
وأنت تمضي عني بحماس وفرح صبي جميل ذاهب ليتابع لعبه في الغابة وبيده شبكة صيد الفراشات .. أحاول أن أصرخ لمرة وبأعلى صوتي « لقد أحببتك » وأود لو أشيعك بها قبل أن يغيبك المنعطف تماماً ،
ولكنك يا حبيبي غرست مسماراً حتى في حنجرتي

١٩٦٩

.. واغمدت نفسي في خنجرك

أيها الشقي

كنت أظنك لن تنسى ما قلته لك تلك الليلة الحزينة ،

هل تذكر ؟

بدأت ، ليلة ككل ليلة لا تنسى ، عرفتها معك .. سيارتك صدفة دفء وضحك، يدك القوية تحيط بخصري قيداً من ملايين السلاسل يشدني اليك ، ويظل يدفني الى فلك عمرك حتى بعد أن تنسحب يدك .. أضواء السيارة تمزق أحشاء العتمة . الاسفلت يركض بجنون تحت العجلات وفجأة ...

رأيناها معاً ،

قطة مومية على الاسفلت صدمتها سيارة ما .

* * *

لم تكن ميتة . لم تكن حية . كانت تنتفض وتتقلب على الاسفلت في مشهد عذاب لا ينسى ... كانت مثل طفل قطعوا للتو ساقه وأطلقوا عليه رتيلاء سوداء مرعبة تطارده ...

شهقت أنا ، وفي صدرك أخفيت وجهي ...



غسلت مرارتي بحنانك إذ قلت لي : تمنيت لو انك لم تشاهديها ... ظللنا صامتين . ظلت صورتها وهي تتلوى في حشرجة عذابها تملأ عينينا . تسد الأفق . مواؤها صرنا نسمعه تردده الريح والمطر والأشجار والحصى وشموع المزارات ... مواؤها صار في حنجرتي ...

بعد دقائق ، بعد أن استعدت بعض أنفاسي قلت لك : انه مجرم ... ليس لأنه صدمها ، ولكن لأنه لم يتوقف ليتأكد انها ماتت ... لأنـه لم يقتلها باتقان ...

* * *

يبدو انك نسيت ذلك كله البارحة .. حين قررت أن تبتعد عني ، واليوم حين عدت إلي من جديد .

البارحة ، طوال النهار ، بيد ثابتة سددت خنجرك الى ذلك القاطن في صدري — حبنا — وقررت أن تكون سيد علاقتنا — كما كنت أبداً — وأن تحمل بنفسك مسؤولية إطلاق (رصاصة الرحمة) والفراق ، على ما في ذلك من تعذيب لي ولك ، ما دام حبنا محرماً ، وفراشنا مكهربـاً بالخوف والحذر ، ووسادتنا يقطنها شريط يدور باستمرار يحمـل أصواتاً مؤنبة متوعدة . بيد ثابتة قررت ، ألا تدير قرص الهاتف وتسأل عني . بيد ثابتة قررت أن تغمد الخنجر . فهمت . شرعت صدري ، وأغمدت نفسي بنفسي في خنجرك .

في التاسعة والربع مساء كنت قد فهمت . بالضبط ، قبل ذلك بساعات ، حدست ما ستقدم عليه ، بتلك الحاسة الغامضة العجيبة ، حاسة لا تملكها إلا المرأة العاشقة والأحصنة الوحشية (التي تعرف بقدوم الزلزال قبل أن تعلن ذلك إبرة أدق آلة في أي مرصد)

عرفت انك قررت أن تطلق رصاصة الرحمة .

وانطويت على الجرح . ومـع الأصدقاء وزوجاتهم مضيت الى حيث

زعيق الموسيقى والأضواء الشاحبة تخفي نزف الطعنة ... كنت أتلوى ألماً وعذاباً واحتجاجاً ويخال الأصدقاء انني أبدع رقصاً .. كنت على (البيست) كما كانت تلك القطة على الاسفلت ..

كنت لا أملك إلا أن أموت بكبرياء ، كما أحببتك وكما عاهدتك . ولذا لم أحاول مد جسر الى عالمك أحمّله اليك رسل عذابي ولوعتي. لم أمسك بسماعة هاتف أنوح عبرها كأية قطة شارع تافهة .. لم أطارد عجلات سيارتك لأطالبك بثمن كفن !

***

وعاد صوتك اليوم الى عالمي . عاد عاتباً ، مؤنباً .

(يا إلهي لديك مقدَرة مذهلة على تسويري بشكوكك ووضعي في قفص الاتهام .. مقدرة تفوق مـــا تسميه أنت بموهبتي عـلى الانتقال من قفص الاتهام الى منصة المدعي العام) .

يبدو انك لم تستطع أن تصدق أصالة نزفي .. لذا عدت معاتباً ... تسأل جسدي المتحجر أمامك ، عن حق حبنا عليّ من الألم ..

لو تدري كم تألمتَ ...

ولكن لأنك ألفت مواء القطط وتهالكهـا ، ظننت صمـــتي لامبالاة ، وفهمت امتثالي لرغبتك على انه استهتار عابث ، ولن تصدق انني عشت عذاب الاحتضار إلا إذا سمعت موائي يمزق عجلات سيارتك .

أقول لك ، أيها الرجل الذي يوازي فراقه نزوح دمي عن شراييني.. أقول لك أيها الطائر الغريب الذي منذ رف جناحاه في زنزانة عمري استحالت الزنزانة كوكباً نائياً أقطنه وحيدة إلا منه .. هو وحده ..

***

أيها الغالي ، اطمئنك ، الى ان عذابي في زنزانة ذاتي منـــذ غاب جناحاك عني ليلة البارحة ، كان عذاباً لم تشهد له مثيلاً أحجار جدران

معتقلات تعذيب العالم ، ولا احتضار القطط على الاسفلت في الليالي الممطرة ولكن ... ألست أنت الذي علمني ان الأشجار تموت واقفة ؟

أقول لك ، ما جدوى أن تحرق شجرة الطيب بأكملها لتتأكد من انها ليست حطباً عادياً مزيفاً .. ماذا يبقى لك منها سوى يقينك بأنها كانت حقاً أصيلة ، لا مزيفة ؟ لا تغامر بإشعال النار فيها اذا كنت ستلعب دور الاطفائي في اليوم التالي .

***

أقول لك : اذا كنت ستعود ، لا تذهب ..

أقول لك ،

في المرة القادمة ، حينما تصوب طعنتك ، فلتكن يدك ثابتة ، وأغمد خنجرك لمرة واحدة .. واذا التفتّ ولم تجدني أتلوى على الاسفلت وأطارد عجلات سيارتك بنواحي ، واذا رأيتني أتقنع بالضحك وصخب الموسيقى هرباً من المزيد من إيلامك ، ومن فضول الأصدقاء والشامتين ، فلا تقل « أفلتت القطة من العجلات » ، لا تقل « كانت لشارع آخر ورجل آخر » ..

***

لا .. في المرة القادمة لا تعد ، فعودتك بشكوكك تعذبني أكثر من رصاصتك .. عودتك تطيل أمد عذابي لأنها تمدني ببعض الحياة .. تحيلني الى تلك القطة التي شاهدناها معاً .. تحتضر طويلاً !

وثق انك لحظة تغيب عن عمري ، لحظة تلملم ابتسامتك وصوتك وضحكاتك وأشعارك ، ستطبق سعادتي أجفانها الى الأبد .. وسيلفظ حماسي أنفاسه .. فأنا لا أحبك ، بل اني مسكونة بك ، وإلا لما وقفت كل مساء في البرد والمطر منتظرة نصيبي منك باستسلام مهزوم أيام الحرب يقف في صف الاعاشة منتظراً نصيبه متقبلاً ما يُرمى اليه بصمت .

حتى بعد أن نفترق ..

سأظل لا أملك إلا أن أحبك ، وأنت ، ستكتشف ذلك فيما بعد بنفسك — لأنك ستظل تحبني ..

١٩٦٩

أتحدّاك بحبي..

حبيبي

ترعبني شهيتك لادانتي ، تطل من عينيك بقسوة قضاة محاكم التفتيش وبرود غدائرهم الاصطناعية .

ترعبني شكوكك المتأهبـــة أبداً للانطلاق بسنابكها فوق بؤبؤي عيني اللتين ترمقانك أبداً بحب عصفور طار ألف عام وسط الريح والعواصف حتى وجد وطنه في صدرك ...

ترعبني كلماتك حينما تتهم حبي بمـــا ليس فيه — وأنت أدرى مني بذلك — وتطلق علي كلماتك المتهمة سرباً من النحل الشرس اللدغ بعشوائية شكوكك ، بقسوة اتهاماتك ، تحيل حنجرتي الى قارة من الملح والصبار...

رغم ذلك كله بملء فمي ، أود أن أقول لك وأن أقول لهم جميعاً :

أحب هذا الرجل الأصيل النبل كحد سيف الأساطير ... احبـــه بلا تحفظات .. أزحف اليه عبر قارة الغيلان والحزن ، وأدمر الجسور كلهـا ورائي ... وأحرق الغابات كلها خلفي ...

هذا الرجل سجاني وطفلي ... أحبه ، وسأظل أتحداه بحبي .

١٩٦٩

يا حزننا الآتي...

كوثني يتلو تعويذته وصلاته ، كنت أردد « أيتها السعادة ، يا حزننا الآتي » ، وكنا مختبئين في ركننا « بالديسكوتيك » ، وكنت مختبئة في أعشاب صدرك غابتي وكوخي وكنتَ مختبئاً في ريش صمتك .. وكانت أناملك العجيبة تجوس مجاهلي . تزرع العنفوان تحت جلدي . تسكب الحذر والطمأنينة في مسامي .. وكانت نظراتي ترتد عنك أيدي متعبة تدق باباً صلداً مغلقاً منذ زمن بعيد .. وكانت عيناك نافذتين تضيء خلفها نيران معابد غامضة الأسرار ، تلوح خلف أهدابها أشباح حكايا عتيقة همهماتها لا تنسى وانتحابها لا يهدأ .

ثم تحتويني بنظراتك . ترحل الأشباح عن عينيك وأرى في سوادهما التماع زوارق صيادين أشداء نصف عراة في ليلة صافية ، وأحس بدفء أغاني أطفال يلعبون بالثلوج ، وبأسى رجل الثلج الذي يصنعونه لأنه لا يعرف كيف يقول : أحب .

وأقول لك : أنا ثعلب صغير طارده الصيادون طويلاً ، ووجد في شبكتك الدفء الذي لم يعرفه في ليالي الرعب والوحشة والصخب التي طالما عاشها ، ولم ينس رائحة الحذر والترقب والتزف بعد ..

ونمت في شبكتك بأمن وطمأنينة طفلة لم تنم منذ ولادتها .. تشدني

اليك هامساً : حبيبتي ، واصلي بجزع : أيتها السعادة التي نعيش الآن ، يا حزننا الآتي ..

ويبحر بنـا الليل في عوالم صفاء سعيدة ، فأغمض عيني خوفاً من الطوفان الـذي لا مفر من أن يجيء .. واتساءل : لماذا لم تجهز علي بجسدك ؟ لماذا لم تغمد جسدك في انسانيتي وتنتهي الحكاية ؟ « تنتهي ؟ يا إلهي من يدري ؟ قد تبدأ عوالم جديدة .. ارتعد وأنا أتخيـل كيف يمكن أن ارتعد » .. ولكن ، لماذا وقد استسلمت لشبكتك، بل وأحببتها وتمسكت بها ، لففتها حولي ، واخبأتني في عالمك ووجودك يحنو الشريان على النبض ، وحملتني في دنياك حتى كادت تضيع حدودي في حدودك.. حتى لم أعد أعرف كيف أخرج منك ، كما لا تعرف السلحفـاة كيف تهجر صدفتها ؟.. لماذا كنت رائعاً هكذا ، حتى صارت لحظات غيابك مسيرة ارغامية في حقل ألغام ، ولحظات صمتك وقوفاً طويلاً لقرية منكسة الرؤوس أمام أجراس دير ترفض أن تقرع ، وغضبك مقصلتي وفراقنا جلادي ... وذراعاي مجدافان يتوقان للابحار أبداً الى موانئك ، وفرحي بك يرتجف في كياني كأيدي الأطفال التي تخفق حول الفراش الملـون محاولة عبثاً الامساك به ؟... تذكر وأنت ترفعني معك الى قمة السعادة ، كم سيكون السقوط مؤلماً .. تذكر ان سعادتنا اليوم هي حزننا الآتي ..

١٩٦٨

حبنا ... شطرنج بالمراسلة

« قولي شيئاً . هل تحبينني ؟ أكتبي . انطقي . انتحري . قولي أي شيء بطريقة ما » ..

أيها الشقي ..

الليلة ، أخلع رأسي بهدوء ، وأودعه أحد الأدراج ، ثم أجلس لأحدثك ما دمت قد رحلت .. لأقول لك أشياء كثيرة ما دمت لن تسمع .

وأهذي ...

* * *

منذ زمن بعيد وقلبي يختبىء منك داخل جسدي، وجسدي يختبىء منك داخل رأسي !... رأسي ، درع الطفلة .

وحينما أكتب للناس ، أكتب بأصابع عقلي ، لأن كل ما تبقى مني مسكون بك ... « بدأت أقول ، أليس كذلك » ..

استيقظت صبيحة رحيلك ، وبدأت أعدد أحداث يومي المرتقب ... كل ما يمكن أن أفعله بدونك ..

بدا كل شيء ميتاً موحشاً ، لذا أغمضت عيني بشدة ، بقسوة، وتمنيت أن أنام حتى صباح اليوم التالي ...

أن أفتقدك ؟ أية فجيعة ..

***

إذن رحلت .

وبهدوء ، خلعت رأسي ، ومضيت الى المطار أجرب الانتظار ...

خلف الزجاج الذي يشطر قاعة المنتظرين والقادمين وقفت أنتظر ... أتأمل وجوه العائدين ...

رجال .. رجال .. وجوه لها عيون كبيرة أو عيون صغيرة ، أو بلا عيون ... وجوه شقراء أو سوداء أو بلا لون ... وجوه ووجوه ...

لماذا أنت بالذات ؟... « لا لم أبك » .. وفي هذه اللحظة تبكي ألف امرأة أخرى ربما للسبب نفسه .. لماذا أنا بالذات ؟

أهرب عنك بقدر ما أتوق لو أركض اليك ... وأظل أنوس عنك اليك .. أتمنى أن أنزفك من رئتي ...

***

أفتقدك ..

أيها الرجل المتعب كذئب بري* يطارده عشرات الصيادين، أفتقد رقتك، يا حد السكين ، أتقلب فوقها ، وصوتك الهادر تحت جلدي ، صوتك، كم أتمنى لو أطلق النار عليه ..

كلماتك ، حقل ألغام ، وحينا أغامر وأقرأك ، يرتمي جسدي فوق السطور الأخيرة ممزقاً يأكله الحريق ..

أن أحبك ؟ أية فجيعة ..

لا . لست غاضبة ..

أحب أن يسيء إلي الذين أحببتهم بصدق . فقد اكتشفت انني كلما رميت بوثن عن صدري كلما ازداد انحاري حرية وطلاقة ...

مرساي ؛ متى أمزق سلاسل حصارك ؟

أن تدقني اليك ؟ أية فجيعة .
وتقول : اكتبي لي ..
لا أستطيع!... اكتب عن أي شيء إلا أنت ... أغازل جميع الرجال إلا أنت ...
معك ..
أموء بصمت ...
أن أحبك ؟ أية فجيعة ..

***

وماذا بعد ؟...
حبنا ، لعبة الشطرنج بالمراسلة تعبت منها (في لنـدن ، كانت لي صديقة عجوز قضت ثلاثين عاماً من عمرها تلعب شطرنجاً بالمراسلة ... كل ثلاثة ايام كان يأتيها مظروف مختوم من شريكها في اللعبة وداخل المظروف صورة لوحة شطرنج ، والنقلة التي قام بهـا ... وتقضي ليلها تفكر بالنقلة القادمة ، بأي حجر تحرك ... وهكذا ... ثلاثون عاماً ... يوم ويوم ويوم ويوم ويوم .. نقلة نقلة نقلة نقلة .. وأخيـراً جاءتني تبكي بمرارة بمـرارة .. سألتها لماذا ؟... هـل هزمت ؟. قالت لا . انتصرت . لا أبكي لأني هزمت او انتصرت ولكن،ولكن اللعبة انتهت . كلانا مهزوم لأن اللعبة انتهت ...
أقول لك ، كلانا مهزوم لأن اللعبة تظل « لعبة » .. لأن حبنا ظل لعبة شطرنج بالمراسلة ... لأننا ما زلنا قادرين على ألا نخلع رؤوسنا حين نشاء .
هزمنا ، لأن جميع أحصنـة اللعبة وملوكها ، وكهنتها وملكاتها ، كلهم كانوا يثرثرون ويتحركون ويعيشون إلا أنا وأنت ، انهـا اللعبة ، ظللنا شريكين قريبين بعيدين لا يربطها إلا اللعبة المشتركة ... شريكـين في لعبة العزلة والغربة ...

***

حتام يظل حبنا لعبة شطرنج بالمراسلة ؟

حتام نتنكب اسطورة الحب تلك كالدرع أمام المرايا ، كي نخفي بها الألسنة الساخرة الممدودة من قلوبنا ، المخترّقة صدورنا كالمثاقب ...

أين يدك .. نسقط معاً الى قاع البئر ، ونستسلم ؟..

حينما نحب الأشياء حقاً لا نفكر بامتلاكها لأننا نحبها ضمن شروطها هي ... شاركني انتصاري ... لا ينتقص من رغبتي بك انك لست لي..

وحينما أغضبك – كما أفعل الآن – (كم أحب أن أغضبك) يتوهج وجهك بالثورة ، ويضيء كما لو اشتعلت شمس في داخله ...

واهذي مناكفة : ان احبك ؟ أية فجيعة ...

كنت تعرف معنى ان تدعني أرحل،أركض ملايين الأميال في شوارع عينيك المفروشة بإسفلت الصمت واللامبالاة ... هل صدقت انني قط سأغفر لك ؟

* * *

أيها الشقي ..

قبلك ، كنت أبداً منفية خارج الأشياء ... منفية خارج دائرة الحزن خارج دائرة الفرح ، خارج عالم الانتظار ..

قبلك ، ما الفرق ؟ ما دمت بعد ان عرفتك ، ظللت وحيدة ، كطير يتخبط في دمائه .

ان احبك ؟ أية فجيعة ..

كدست لك اقنعتي على جانبي الطريق . كيف أضعت وجهي وما عريته إلا لك ؟

* * *

هل تفهم معنى ان يسقط الجبابرة ؟.

ألفت ان ترى الأقزام يسقطون لأجلك ..

لـــذا ..

لما انكسر الاناء النادر الصيني خيل إليك انه كأس أخرى فرغت...
(رأسي نكتة مهترئة ، فأنا عاقلة) . الآن ، تمّ صحوي .

الآن سقط الآخرون والزمن ، والمكان غـــير مهم ، بقينا وحدنا .
هادئين ، صامتين ، (لا تسلني إذا كنت أحبك أم لا) نقيين في الفراغ
الرمادي الأزلي ، كتوأمين في رحم واحد .

١٩٦٨

لا شفاء ... منك !

أيها الشقي ،

ليست هي لحظات سعادتنا تلك التي باتت تخيفني ، وتكشف لي أي جسر شيطاني قد امتد بين جزر أعماقي النائية ، ووحشة شطآنك ، وانني بدونك « حفنة من ريش في مهب عاصفة » . لا ...

بل ان لحظات شجارنا هي التي ترعبني . وحدها تؤكد لي أكثر من أية لحظة سعادة عرفناها ، اننا بدأنا نضيع الخيط الرفيع الذي يفصل بين التمثيل والواقع .. بين الحلم والحقيقة .. بين عبث اللعبة وجدية الحياة ..

واننا لما ظن كل منا انه يرتدي أقنعته ، ويتلو أبياته على المسرح ، ويضم اليه صاحبه ممثلاً على المسرح . أضعنا ذلك الخيط الرفيع في لحظة ما ، وخرجنا الى الكواليس نتابع المسرحية التي لم نعد متأكدين اذا كانت منذ البداية مسرحية أم حقيقة ..

هل تذكر ليلة البارحة ؟ للمرة الثانية نتحالف معاً : أنا وأنت ، ضد ذلك الجسر الذي ظنناه أو ادعى كل منا لنفسه انه أوهى من خيوط القمر ونسيج الضباب ، للمرة الثانية نتحالف معاً ضده ، فنفتعل شجاراً ليقول أحدنا للآخر وداعاً ، كما لو كان يقذف بين يديه بحزمة من المتفجرات، ويتلقف الآخر كلمة «وداعاً» بفرح شيطاني ، ويزرعها تحت ذلك الجسر حزمة من ديناميت ليفجر بها الجسر «الوهم» ...

ولكن للمرة الثانية ، نطفىء الفتيل بدموع نمت كورود الأساطير حتى صارت أكبر من حدقاتنا ، ومن صمتنا ، ونبتلع أصابع الانفجار ونتستر على هوله في أحشائنا،ويتشبث كل منا بصاحبه عاجزاً عن إسدال الستارة وإعلان « الختام » و « النهاية » ، كما لو ان الحكاية منذ البداية لم تكن أبداً مسرحية .. كما لو كانت أكثر حقيقة من حياتنا اليومية ...

لقد بدأنا نحتضن جرثومة ذلك المرض الـذي لا شفاء له حتى ولا بالنسيان ...

١٩٦٨

انوثتي ليست حصان طراودة ..

عزيزي ، صديقُ حبيبي ...

وتسألني عن صديقك ، وتقول : « لم تحتكره امرأة ، مرة ، كما احتكرته أنت — تقصدني أنا ، — ولم يخلص لأنثى كما هو مخلص لك — أي لي أنا ! — » ...

وتسألني بالوكالة عن من ؟ عن الدهشة ؟ عن حبيبي ؟ عن حزننا الآتي ؟

ما الفرق ؟!

للدهشة ، ولحبيبي ، وللريح المزروعة على أعتاب حزننا الآتي ، ولأنياب العيون الفضولية المشرعة كالعلق لامتصاص أخبارنا ، لكتمان وسادتي الأبيض ، ولثرثرة حروف المطابع ، لهم كلهم ، لكم . لي ، للصمت، أصرخ بحقيقة واحدة ... أقولها بملء حنجرة مسامي ، بمحبرة رئتي ، فأنا أرفض أن ازيف حقيقتي، إذ أنني امرأة أنانية الى حد رفض الكذب، وليس في الوجود ما يستحق أن أخون ذاتيَ لأجله وأكذب ...

ولذا ، أعترف ...

صديقك لم أحتكره (كان يرضي غرور أي انثى ان تبتسم لكلماتك في تواضع مفتعل ، وبصمت انثوي لئيم مدّع، تقر التهمة النصر: احتكاره).

لا ...

لم احتكره ...

لم يحتكرني ...

ليس الاحتكار المتبادل « عملة بورصة علاقتنا » ...

بل هو الرفض المشترك لعلاقات عمادها (الاحتكار) ومسرحها (بورصة وأداتها (عملة) ...

لم احتكره .

لم يحتكرني .

ولذا فلقاؤنا يحتكرنا منذ التقينا ... نرجسيتنا المشتركة هي التي احتكرتنا.

جوع كل منا الى ذاته ، الى حقيقته ، هو الذي يلم شملنا كل مساء الى وليمة فرح واحدة ...

فرح كل منا بلقاء ذاته ، التي كستها يوماً بعد يوم طحالب العلاقات المزيفة وصدأ الزحام الرطب الموحش في أزقة الاحتكار ...

انه معي كل ليلة ، لأنه ليس بحاجة لأن يغادر ذاته ليكون معي ...

وليس مضطراً لارتداء قفازات المجاملة الدمثة على نظراته وأنامله ولحظات صمته وحزنه ، لأنه ليس للحظات صمتي وحزني أقنعة وطقوس إلا بقدر ما في استسلام الغاب لتفجر ينبوع في قلب صخر ظنّ زمناً طويلاً انه صخر .. ونسي ان الزلزال لا ينشب عناقه المجنون إلا في الأرض الصلبة ...

تسألني : أي انثى أنا ؟

أقول لك : انوثتي ليست قط حصان طروادة ، أخفي في جوفه رغبة تملك انثوية بالاحتكار العدواني ، وأنسلّ به الى دهاليز أعصاب صديقك، ومنها الى كهوف أعماقه البكر ...

تسألني : من أي طين جبلت ؟

أقول لك : في وهج لقائنا الانساني ، أكف عن أن أكون طيناً ..

يصير لفرحتنا عراقة فخار منسي في كهف شهدت جدرانه عمادة طفل بالرعد والمطر والغربة ...

هل يحبني ؟

من قال لك انني أريد انتزاع اعتراف رسمي منه بسيادتي ؟

أنا لا أريد الاعتراف ، لأنني أعايشه .. أنا لا أريد الصيغة ، ما دمت ثرية بالمضمون ..

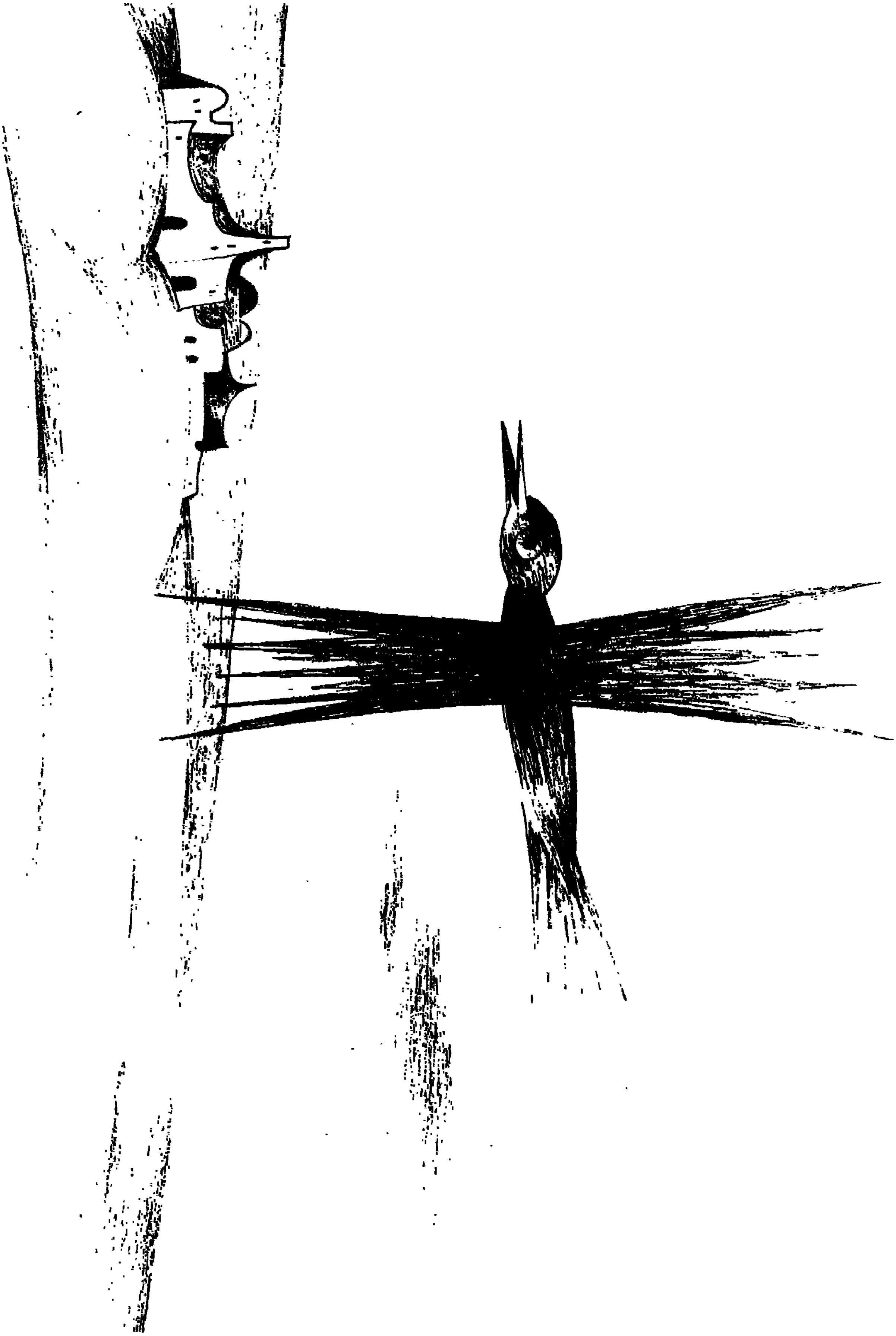
يحبني ؟ أحبه ؟

التسميات لا تهم .. الاعترافات لا تجدي .. النفي لا يمسح أنفاسنا المتكاثفة على جدار ليالينا .. والتأكيد لا يبدع علاقة ..

يحبني ؟ أحبه ؟

ليتنا لا نفعل . كي لا يكون الحزن – الذي لا مفر من ان يأتي – نسغاً كاوياً يجري في عروق أيامنا أبداً بدلاً من دمائنا ...

١٩٦٨



كل وجه يعذبني

أيها الغريب ،

لا تسلني غاضباً كل يوم حين نلتقي : أين كنت ؟.. فأنا لا (أكون) حينما أكون بعيدة عنك ... حينما لا توجدني نظراتك كما يعيد الشعاع خلق الملامح على شريط التصوير الخام ، يغتال بعدك حضوري ...

أستحيل ساعة صدئة ميتة العقارب مرمية في صندوق عتيق بين ثياب طفل وحيد مات .

أستحيل كوكباً مظلماً منسياً في ركن السماء انتزعته يد شريرة عن مداره وقذفت به ليتخبط عشوائي الخطى في فراغ العدم الرمادي، كأرنب أصيب برصاصة في عينيه ولما تقتله بعد ...

لا تسلني بمن التقيت ، فكل وجه يطالعني يعذبني لأنه ليس وجهك ... وجهك الذي أحمله فوق صفحة عيني كالخطيئة: يعذبني وأعجز عن محوه ...

لا تسلني لماذا أصمت حينما تسألني !

لا أستطيع أن أقول لك في وقت واحد ، في كلمة واحدة :

وحدك عالمي . عمياء حتى يبزغ وجهك . خرساء حتى تناديني .

مشلولة حتّى تمسي بيــدك المعجزة (كما كان المسيح) .. قارة جليد حتّى يبدأ طوفان حضورك الناري ... لأتقد بعده فرناً أسطوري اللهب .

لا تسلني يا زين الشباب عن إخلاصي ... منذ عرفتك لم أر رجلاً واحداً آخر على هذا الكوكب . فكيف أخونك ؟

وأنت ، هل ترى أحداً سوانا يا حبيبي ؟

١٩٦٨

لماذا أيها الشقيّ ؟

لماذا أيها الشقي ،
في شوارع مفروشة بالعتمة ، والثلوج ، والرجال الجياع ، والمجهول ؛ أمضي وحيدة .
في حلقي ، الكلمات العتيقة التي لم تقل تتكاثر كالصبار ، وأجلدهـا كأجساد السجناء ..
يقطنني شيطان مدهوش .
وكلما تساءلت « لماذا ؟ » ، تستحيل عيناي نافذتين مفتوحتين على مقبرة صخرية ..

* * *

لماذا ؟
خلفي تركض عشرات الحقائب . تلاحقني من مطار الى آخر ، يتعثر بعضها ببعض ، ومن وقت الى آخر ، تتناثر الأوراق والكتب وعجلات سيارات وثياب حريرية سوداء ، تدور على نفسها في دوامـة الرياح ، وتنطلق منها أصوات شاحبة ، من ذلك النوع الذي لا نستطيع ان نتأكد فيما إذا كان ضحكاً أو بكاء .

* * *

لماذا ؟
حينما أبكي ،
تسقط دموعي قطرات من الحبر الأسود ، فأزرعها في حقول بيضاء شاسعة .
وغداً ، حينما يأتي الربيع ، سينبت بين صفحات دفاتري حقل من الأطفال محروقي الخدود والأهداب ، تحصدها العيون بمناجل فضولها ..

***

لماذا ؟ لا أذكر
وان تذكرت ، فإنني لا أدري
وكل ما أدريه ،
انني طالما استيقظت في أعماق ليل تشردي ، وبحثت عن خنجر ، أقطع به تلك الخيوط اللامرئية التي تجر بجسد سفينتي من ميناء الى آخر، تجرح لحمها فوق الصخور بعبث مذهل ...
لماذا ؟؟

***

وأحياناً ،
وأنا أركض في الزحام من حيث لا أدري ، والى حيث لا أدري... اجدني أجلس فجأة على الرصيف .. وانفجر ضاحكة حتى البكاء ..
إذ أرى ملايين الخيوط الدقيقة التي تحرك الناس الراكضين والواقفين والذين يتسولون رغيفاً أو أي شيء .
ويبدو الشارع مسرحاً هائلاً من مسارح الاراجوزات المتدلية .
وأحسد الدمى الطليقة في واجهة مخزن الألعاب ، وأجنحة السنونو المبحرة بحرية بحثاً عن الربيع ..

***

ماذا كنت أقول ؟ أجل ..

اليوم حدث شيء رهيب . روى لي أحدهم هذه النكتة .. ولم أضحك لأنني صدقتها ، لكنني سألته لماذا ؟؟

* * *

النكتة ؟ ترى هل تضحكون لها ؟

احتفل رجل بعيد ميلاده المئوي ، وسمع بذلك أعضاء إحدى الجمعيات الأخلاقية ، فقرروا زيارته . وحينما ذهبوا اليه ، سرهم انه لا يدخن ، ولم يذق الخمرة طيلة حياته ، وقدموا اليه تصريحاً يعلن فيـــه انه مدين بعمره الطويل هذا الى بعده عن الدخان والخمرة والسهر . ومد الرجل يداً مرتجفة وأمسك بالقلم وانحنى على المنضدة بصعوبة ليوقع .. وفجأة ، سمعوا ضجيجاً في الطابق العلوي حـــتى كاد السقف يسقط على رؤوسهم وصوت تحطيم زجاج وأثاث وصراخ أجش شرس . وبدا عليهم الرعب، إلا أن الرجل طمـــأنهم بقوله : لا تخافوا . هذا أبـي ، وهو سكران كعادته !!

* * *

تضحكون ؟ حسناً .

(لنفترض انني أيضاً ضحكت قليلاً) .

سألته بعد أن انهى النكتة : لماذا ؟ لماذا ؟

* * *

— لماذا ؟ لماذا ؟

صرخ في وجهي كمن يلقي بقذيفة من يده قبل أن تنفجر : حسناً. انه القدر .

* * *

القدر .

وانفجرت في عينيَّ الكلمة ... رددتّها في الشوارع المفروشة بالعتمة والثلج والرجال الجياع والمجهول ..
ثم بكيت ..
ولأن دموعي قطرات من الحبر الأسود ، زرعتها في حقل أبيض شاسع ...
وحينما يأتي الربيع ، سينمو داخل أوراقي حقل من الأطفال محروقي الخدود والأهداب .

١٩٦٧

حين سرقوك من بين ذراعيّ ...

أبـي ، أيها المسافر
أن أرثيك يا أحمد ؟
أن أمطر نحيباً وثرثرة ؟
أن أمزق ثيابـي ولحمي وأهدابـي وسط كورس الندابات ؟
كيف ، وأنا لا أصدق ؟
لا أصدق . أرفض أن أصدق .
وان صدقت ، ان استطعت أن أصدق انك كففت حقـاً عـن أن تكون ، أية تفاهة يصبح الرثاء ! أي زيف !..
أن أرثيك يا أحمد ؟
كيف ؟
كيف أمزق الصمت الذي يستولي علي كبيراً ومتحدياً ومترفعاً كتلك النظرة التي قد ترتسم في عيني إله صلب للتو ؟
في مستنقع الرمل المتحرك أغوص .
لا أصدق .
موتك خيانة .
(أعرف انك تسمعني ، وحدك أخاطبك ولا أكتب للأجيال. وأحتقر

الخنساء، وموتك — ما يدعونه بموتك — قضية شخصية جداً بيني وبينك، فقد كنا طفلين غريبين شبَّا معاً في ميتم واحد، وكان في كل ضربة توجه الى أحدهما رباط جديد من البوح والتساند يصهرهما.. ولأني لا أصدق، اتهمك، لترد وتنفي، وينتهي الكابوس النكتة).

أقول

موتك خيانة.

خيانة لي وحدي لا لهم جميعاً..

فهم يا سيدي قالوا انك مت لما قال لهم الطبيب انك مت. ثم بكوك، ثم صدقوا انك في النعش وساروا خلفه ثم حددوك في سطور ثم أحصوا ما صنعته من أجلهم وبعد الجمع والطرح صبّوا على وجهك قالباً من الجبس وصنعوا لك تمثالاً وسوف ينصبون التمثال على باب الجامعة هناك ويحيونه ويعلّمون الأطفال انه كان مواطناً صالحاً وينتهي الحساب بينك وبينهم..

أقول، موتك خيانة لي وحدي

فمنذ (فطمتني) — كان ذلك منذ طفولتي منذ صادقتني — سقط من حوارنا منطق الأرقام، وبالتالي انتهى كل احتمال بالاستبدال أو التعويض، وصار الشرط الوحيد لعلاقتنا الانسانية: أن تكون.. أن تكون...

وأنت الآن كففت عن أن تكون، أعني أحقاً انك كففت عن... لا أصدق.

لا أصدق انك لن تقرأ هذه الكلمات.

أريد أن تعرف انني لن أغفر لك ان كان ذلك حقاً قد حدث. لن أغفر للإله فيك.

وحينما سرقوك من بين ذراعي صارخين «مات»، وأنا أصرخ «هاتوا طبيباً آخر»، وحينما سرقوك بعيداً ورموا في وجهي بشيء اسمه شهادة الوفاة، تعلق عمري كله بعينيك، كي تفتحهما، بشفتيك كي تحركهما

وتصرخ بذلك الصوت المليء بالرجولة والحنان ــ الذي أسمع الآن ، حتى الآن ــ طبعاً لم أمت ، طبعاً غاده صادقة ...

لكنك خذلتني .. للمرة الأولى خذلتني أمام كورس الندابات والندابين.. وحتى الآن ، أنتظر أن ألقاك خلف الباب كلما قرع ، لتجيء وتقول كلمتك معي ، كعادتك حينما أقف وحيدة أصرخ في وجه الجميع .. حتى الآن لا أنت خلف الباب لا أحد سوى المعزين يقولون : مات ...

حتى الآن ، لم أصدق .

علمتني أن أقف وحدي ، وسوف أتعلم أن أقف بدونك ريثما تعود، أعني ريثما نلتقي بطريقة ما ...

كلمة أخيرة : أشتاقك وأفتقدك .

١٩٦٦

شهقة في سمفونية ليل الغرباء

دمشق يا بعيدة ، يا حكايا التعاويذ والتقاليد ، يا سكيناً مغروسة في أعماقي لا أملك إلا أن أحنو عليها .. دمشق ، يا طفلة الخريف الوديعة.. اني أراك الآن خلال حبال المطر ، الآن وأنا أتسكع في شوارع بيروت المقفرة .. أراك كما كنت أبداً ، وديعة ، كئيبة ، ومحافظة كزوجة ما زالت لا تجرؤ على أن تقبل زوجهـا .. أراك ، وأرى نفسي فيك ... اني هناك أمام باب « اللاييك » . انني هناك في الغوطة طفلة متمردة على الأطفال تفضل مصادقة أبيها .. انني في طريق الصالحية المؤدي الى مدرستي فتاة تضم كتبها الى صدرها ويتوهج خداها بالحمرة كلما أطال شاب النظر اليها .. انني هناك في الزحام في ليلة ما من ليالي تموز والألعاب الناريـة رقصة غجرية في كبد السماء .. اني هناك على قاسيون وأناملي تضيء شموعاً فرحاً بلقاء يده .. والهوة التي أمامنا لا نعبأ بها ..

ولكني هنا ، هنا في شوارع بيروت .. متشردة يغسلها المطر كأيـة شجرة عارية من شجيرات جنازة الدرب . وفيك يا دمشق ، خلفت نفسي وطفولتي وزمني وبراءتي .. هنا يهاجمني الواقع بكثافته كلهـا .. يعريني من أشيائي التي أحببتها .. يعريني إلا من البرد والغربة والذكـرى .. وأبنيتك التي حفظتها يا دمشق .. حتى حفرات شوارعك ، حتى اهتراء

أحجار أرصفتك .. آه ماذا أقول ؟ عبثاً أحاول أن أكفن صورتك بالمشاهد أمامي .. بالمخازن المتخمة بالأشياء الجميلة .. هذا بائع الدمى تغسل الأمطار واجهة مخزنه ... وأقف وراء الزجاج أتأمل الدمى ... لم ألعب قط بدمية . اني امرأة لن تعرف الشباب أبداً لأنها لم تعش طفولتها ..

* * *

المقهى دار المشردين .. أجلس نقطة صمت في شبكة الضوضاء حولي.. في فم المذياع أغنية حب زرقاء .. البحر في القعر المعتم يرسم ملله موبجات رتيبة متشابهة .. هدأ المطر قليلاً ، والقمر منهك ضائع بين أحضان الغيوم..

أنا هنا وحيدة ، شهقة متعبة في سيمفونية ليل المشردين ..

ووجهك يا غريب يلاحقني كلعنة محببة .. عتابه حار كحبه ، كتوسله ، كقلقه ، كشوقه .. صدرك يا غريب ، يا قارة الضياع ، كم كان حاراً . كرمال صحراء دمشق في ليالي الصيف .. يوم كان المطر حلماً في خاطر زرقة السماء .. وأنت ..

للذكرى طعم النحيب في حلقي .. طعم الرماد المبلل بالدمع ..

هل كانت حكايتنا الابتسامة الأخيرة التي تضيء وجه محتضر ؟

* * *

المقهى دار المشردين وأنا ما زلت هنا أجلس نقطة صمت في شبكة الضوضاء حولي .. وأغنية الحب الزرقاء في فم المذياع تكاد تنتهي كما تنتهي أغاني الحب جميعاً .. أسمع صوتاً مألوفاً لمذيع يقول «هنا دمشق».. « هنا دمشق » ، وتصفعني العبارة توقظ ألم السكين في أعماقي .. هنا دمشق .. حروفها شياطين تحترق بين أهدابي وفوق جبيني وفي صدري.. هنا دمشق ... وأهرب من المقهى فمي مغارة ملح ... نحيبي احتكاك الصدأ الرطب بالصدأ .. « هنا دمشق » .. وأبكي بشفتي وأتأوه بعيني وأبحث عن أشد الأرصفة عتمة ..

أين أنت يا دمشق ؟ يا مبدعة عذابي ، يا أم قلقي وسيدة تشردي؟

كفك التي لم تحمل لي سوى القلق والنكران والضياع أطبع عليها قبلة الوفاء .. ما زال المذياع يردد في أذني « هنا دمشق » ..

وأنفجر باكية بشراهة مطر مداري .. أين أنت يا دمشق .. يا وجهه في دمشق ؟.. يا شوارعك وخريفك وابتسامته المنحوتة على كل حجر من أحجارك ورائحته في فصولك الأربع ...

أين أنت يا دمشق ؟ يا كهف السحرة والآلهة الضائعين بين غباء الايمان وإبداع الإلحاد .. يا غابة الخبز العتيق والنراجيل القديمة،يا تماثيلي المطعون في طقوس الزيف ، يا رسمي الممزق في مهرجان الأقنعة ، لماذا يا غالية ؟.. بكبرياء أدفن شوقي اليك تحت منابع الضحك الفضي .. بكبرياء أتحدى رسمه،ذكراه ، أتحدى التصاقي به يوم وقفنا أمام الهوة في قاسيون .. الهوة زهرة وحشية من الأزهار اللاحمة،أشواكها أنياب تنغرس في شبابي لتمتص منه الحيوية والأمل والتوق الى المجهول .. وأنا أستسلم .. أتخبط ، أقاوم ، أتعب ، أسقط ، أتماسك .. لا أقول شيئاً .. بكبرياء أحمل مغارة الملح في فمي كي لا أبكي حينما يقول المذيع « هنا دمشق » .. كي لا أنهار حينما تلاحقني عيناه ، منارتاي الضائعتان ..

١٩٦٤

انت ومدينتي

وثنان ، لا بل جرحان ... انت ومدينتي
والصمت ، قدر أحزان النسور ، صار قدري ..
اسطورتان شاحبتان ، أنت ومدينتي ..
وتعاقب الأيام عبثاً يسكب أمطار النسيان ليذيبكما من خاطري ، عبثاً يهيل الضباب ..
وسوء فهمكما لي لن يوقظ عقارب نقمتي ، لن امنحكما أبداً غير الحب والصمت ..

* * *

اذن انتهت اسطورتنا يا صديقي

وذلك اللقاء الرائع كان آخر لقاء .. وحبنا الذي بدأ في الذروة قد انتهى في الذروة نفسها .. دون انحدار .. انه ما زال جميلاً ودافئاً كطفل مات من ثوان فقط ...

النسيان ؟

صديقي ، يا حد الشفرة ، بحنو يمس ، بوحشية يجرح ..

وصوتك .. يا هتاف ناريخ الأحزان ، يا عتاباً مريراً كخيبة الآلهة..
اختزنه بحرص البخيل في كهوفي ..
الضعفاء وحدهم يتحدثون عن النسيان ..
وأمي كان اسمها : التحدي ..

* * *

اذن انتهت اسطورتنا يا مدينتي
حلت علي لعنة الغجر منذ تلك الليلة الدامعة ، ليلة رحيلي .. ليلة تحولت ابنيتك الى اشارات استفهام سود مشدودة الى قعر الشوارع ، تتساءل بأسي : الى أين ؟ الى أين يا زوجة الرياح ؟؟ وحكاياك ... وطفولتك .. وجذورك هنا ..

ان نبل الفارس الذي أخذ بيدي لم يحجب عن عيني قسوة الدرب التي تنتظرني .. لم يلجم لساني عن التساؤل : ترى أية أصابع شريرة كانت ترسم لمصيري هذا ؟ أية قبضة عابثة ؟!

* * *

اذن انتهت اسطورتنا يا دمشق ..
حلت علي لعنة الغجر ، وعلي ان أبدأ من جديد ، خيمتي الرياح ، ووسادتي غيمة ذكريات ، وحبيبي الصمت وديني الكبرياء والوفاء ..
وأنت أبداً ، مبكاي ومصلاي اني توجهت وحيدة إلا من طموحي.
أحمل طموحي وأحمل معه عشرات النبال المسمومة المغروسة في ظهري.. وأسير .. وأسير بحثاً عن أفق عن شمس عن إله عن المفتاح .. خيط الدم الذي أخلفه ورائي كلمات من جمر تحكي مأساة المرأة الطموح في بلادي ..

* * *

اسطورتان شاحبتان .. أنت ومدينتي ..

احملكما في صدري منارتين نائيتين ..
احملكما في أعماقي جرحين مقدسين ..
في دروب طموحي لسعيّ سوط تزيدان وحشية اندفاعي ..
في سجل عمري اسطورتي وفاء وتماسك وكبرياء ..
كنت يا صديقي مدينة أفراحي كما كانت مدينتي ...
ترى هل أعود إليكما ؟

١٩٦٤



فوق الثلوج

بصفاء أفعى خلعت جلدها القديم .. بصفاء أعين الآلهة ساعة الخلق .. بصفاء الثلج الذي كان على ضفتي الطريق .. بصفاء الندى الذي لم يلمس شفة زهرة بعد .. بصفاء فجيعتي بما كان وبما سيكون .. بصفاء أرحب بالصفاء ، بالأصدقاء ، بالعيون التي لا غدر فيها بالقلوب التي لا تعرف اللؤم .

ورغم الصفاء ، رغم فرحة اللقاء بنفوس لا تعرف المخاتلة ، رغم كل شيء أحس بأعماقي الغربية ، بـــذلك المسرح الخاوي حيث الستارة ممزقة والقيثارات مطفأة العيون .. رغم كل شيء أحس بالرماد ، بالرماد في حلقي ، بالدمع الذي لم يره رجل قط ..

* * *

الثلج الثلج .. أكداس من الثلج .. أجيـــال من الثلج .. وأنا تحت الثلج ، هل تجرؤ ؟ هل تستطيع أظافرك أن تنبش قبر الثلج من فوقي.. هل تجرؤ عـــلى أن تراني كما أنا ، عـلى أن تحبني كما أنا .. امرأة من رماد تبحث عن بعثها في صدرك ؟ وصدرك ، تراه كما أحلم ، طبقـــاً من جمر يترك بصماته فوق الحنايا العارية .

يا أنت .. الثلج الثلج ، هل تجرؤ ؟

* * *

أتوق ، أتوق الى أن أرحل بعيداً ساعدك مركبي واهدابلك شراعي ، وأنت يا أنت كالريح ، لا لقاء معك إلا على خد الجبل العاري في ليلة مظلمة باردة .

وأنا يا أنا ، يا طفلة محروقة الخدين ، يا امرأة من نبيذ المستحيل.. إلى أين ؟؟

***

الى أين ؟ لا مفر من الرحلة .. لا مفر من أن أهرب بعيداً واترك لكم جسدي على المنضدة ضاحك الشفتين مرح اللفتـــات .. لا مفر من الرحيل .. نداء لفجيعة ينطلق من هناك ... من ظلمة غابات نائية تتصاعد من مغاورها أبخرة تتلوى كامرأة تجلد بالسياط ..

لا مفر من أن أرحـــل .. الى لا مكـــان .. الى أي مكان .. اني مشتتة متعبة ضائعة .. كدخان لفافاتك التي ترحل من دفء شفتيك الى المجهول .. الى المجهول ..

١٩٦٤

أعياد فتاة عمياء

لأني يا صديقي حينما أبحث عنك ، أتحسس الجدران .. لأني والساعة الثرثارة في الظلام مصلوبتان تتجادلان .. لأن الصبايا مررن بغرفتي شامتات مشفقات قبل ذهابهن الى الحفل في دارك القريبة .. لأني كما تتندرون الآن : صرت عمياء قبل إطلالة العام الجديد .. بأشهر .. بأيام .. لا أدري منذ متى يا صديقي .. فأنا لم أعد أميز الأيام .. والألحان التي تهب من شرفاتك تبعثرني كشتيت السحاب .. تحملني في ظلماتها الى بعيد .. بعيد .. أتيه .. أتحسس الليل والصقيع ، وأبحث عن براعم العام الجديد لا جديد ..

فلأني هنا منبوذة لا أرى ، فأنا أبصر كل مكان .. أبصر كل مكان ..

* * *

.... برلين ...

وعينا صبي فارغتان من امتلاء الماضي وتوثب المستقبل .. برلين .. وغريب يضم اليه غريبة والأسلاك الشائكة تفصل بين صدريهما ، تنغرس في لحميهما .. برلين .. والدبابة تجرح خد شجرة الميلاد الذابلة.. الشجرة بلا أضواء .. بلا كرات ملونة .. أيد مقطعة وأعين أطفال مشوهة لم

تولد بعد هي وحدها الّتي تطل من بين الأغصان ..

الحارس يروح ويجيء .. ضربات حذائه تدق الأرض .. تدق مسامير جديدة في غربة الانسان .. والمسيح .. لم يولد منذ أعوام طويلة ..

العيون في برلين كالندم ممزقة دامية .. كالبارحة ، كالغد ، كأيام كانت وستكون .. تسائل صقيع الريح : بأي عام جديد يهرفون .. ما دام لا جديد في الدبابة ، في الأسلاك الشائكة ، في العيون !

* * *

اسود الوجه كلؤلؤة تلاحقها اللعنة .. يقف أمام الكنيسة .. جاء الى أسواق الله يبيع الحب للذين يبيعون الحقد والكراهية ..

البيضاء المدللة تمر به . تخشى أن يتسخ ثوبها بدمعه الأسود .. رجال الشرطة في أسواق الله كثيرون .. التفاهة البيضاء لن تلوث بالحب الزنجي .. بالدم الزنجي .. اطردوه ..

في ركن الشارع ينزوي الزنجي .. الكنيسة أوصدت معدتها دون الخبز الأسود ..

الأجراس تئن .. تتلوى ساخرة .. هنا تقوم صلاة الأشراف، فليبحث السود بين أحجار الشارع عن إله آخر .. وعام آخر ..

* * *

موجة اللحن المغناج تهب من دارك باهتة كالرياء .. تنتزعني من الصمت والظلمة وأنين الساعة .. تحملني الى دارك .. الى الغرفة الّتي حلفت فيها انك ستحبني أبداً ..

وأراك كما كنت أبداً ... نجم صبح فخور في سماء شاحبة .. بالوهم أتحسسك وأنت لاه ..

صديقتي ، أعز صديقة تطير كالفراشة بين ذراعيك .. تحكي لك كيف أخطأت العمياء النافذة فظنتها باباً وكادت تخطو عبرها .. نكتة ..

تضحكان .. تسألك متى تطفأ الأنوار ليلة العام الجديد .. الظلام .. لو انها تعرف معنى الظلام ..

* * *

الظلام .. وجدران العفونة الرطبة .. ورائحة الاوراس تفوح من الجرح العتيق .. الرجل يحمله ، يزحف به ، ينبش أرض السجن بحثاً عن عام جديد .. أي عام .. سجنوه بعدما ثار .. لأن أرضه لم يولد فيها مسيح منذ أعوام .. لم تعرف عاماً جديداً منذ أعوام .. الخنجر ما زال يحسه في جرحه ، حاداً ملتهباً ، سيخاً من نار .. صاحب الخنجر يشرب مطفأ العينين .. يهذي : وعلى الأرض السلام !

* * *

في مدينة ما تحط بي موجات اللحن ..

في كهف مـا باهت الأضواء – بيكاسي – الرسوم .. آدم وحواء يرقصان .. حواء من النوع الذي ينام في أرائك لويس الخامس عشر .. يحتقر الذباب والرجال .. ويبحث غالباً عن أي رجل !... قميص آدم المهترىء لا يخجل من مخمل خديها المدلل .. آدم عادي كآلاف الرجال .. يتحدث عن النوم والعمل والتعب .. يتحدث عن أي شيء ..

فجأة .. يثور اللحن .. يضمها اليه بشدة .. تصفعه – الكونتيسة – غاضبة .. تكاد تفسد طية ثوبي ونظام شعري أيها الجلف ..

الرجل يجمد . سيدتي . تريدين أن أحبك ، وآدم لا يعرف كيف يحب بالشوكة والسكين ..

* * *

الألحان ما زالت تهب من شرفاتك ، تبعثرني كشتيت السحـاب .. تحملني في ظلماتها الى بعيد .. أتيه .. أتحسس عيني الطفل الذي لم يولد بعد في برلين .. أتحسس عيني اسود الوجه كلؤلؤة اللعنة .. أتحسس

الجرح الدامي المعتق بأحـزان الاوراس .. أتحسس فقاعات أفراحـكم .. أتحسس وجهك والليل والصقيع .. وأبحث عن براعم العام الجديد .. آه لا جديد .. لا تبصرون ..

فلأنني هنا منبوذة لا أرى ، فأنا أبصر كل مكان .. — للأسف — كل مكان ..

١٩٦٣

وتمر الأيام يا غريب

قبل ان نلتقي ، قبل أن تقف أمـــامي كرمح لا ينثني ، قبـــل أن تحدثني عن أحزان العمالقة ، ووحشة الرجل الانسان في حريم ألف ليلـــة وليلة حيث النساء يغطين وجهه وذراعيه وكتفيه وصدره .. كالعلق .

قبل أن نلتقي يا غريب ، كانت الأيام شاعراً جوّالاً يغمر النوافـذ كلها بالأغاني والنجوم إلا نافذتي .. نافذتي كانت دائماً مغلقة ..

وكان الآخرون ينزلقون على صفحة عمري دون أن يتركوا خدشاً .. بصمة اصبع .. تماماً كما تنزلق المياه على الجدار الزجاجي لبائع الزهور ..

وكنتُ جداراً زجاجياً حقاً .. وبارداً .. وزهوره لا تصلح لباقة فرح.. للأكاليل فقط !

* * *

وتمر الأيام

وتزرع الأيام في خاطر الزمن حكاية تنبض دفئاً وطيشاً كشفة عاشقة ..

وتمر الأيام .. كانت براعم فأنضجناها .. وكانت صقيعاً فألهبناها ..

وكانت ساعات جمود فحركناها .. سكبنا في دقائقها العبير واللون والظل..

وكان الليل شوارع فضية تمتد تحت عجلات سيارتك .. وكان العمر حكاية ، ضحكة ، همسة تنسجها شفتاك ..

وكان المجهول نظرة خضراء تغسلني بها فأحسني كغابة بكت طويلاً .. ندية وبريئة ... وكان صدرك مغرياً كالحقل الذي يرتمي على ترابه جنود متعبون فرغوا للتو من المعركة .. وكنتُ يا غريب جندياً مهدوداً يحمل معه المعركة أينما مضى ..

* * *

ظلك الكبير يا غريب ، أحقاً ينحسر ؟ ووجهك ، كـوّتي التي أحببت أن أطل منها على العالم ، أحقـاً يغيب ؟ وعينـاك ، يا نجمتي الضالتين في آفاق ممزقة المدارات لن تومضا بعد تلك الليلة قرب وجهي ، تتوقان للرقاد بين خصلات شعري .. أهكذا تمرين يا أيام ؟

غرفتي أضحت نافذة كبيرة مفتوحة .. لمن تحمل أغانيك أيها الشاعر الجوّال ؟

* * *

المطر ..

يغسل الشوارع التي تسكعنا فيها .. يغسل مقعدينا .. يغسل الشاطىء.. يغسل وجه البحر .. يغسل الغابات .. يريد أن يمسح بصماتنا .. يريد أن يزيل آثارنا .. أنفاسنا .. ضحكاتنا .. أحلامنا الصامتة .

عبثاً .. عبثاً يا مطر .. عبثاً تنمحي الحكاية . أضحت كوشم الجمر في الأعماق .. عبثاً يا مطر ..

تعال .. وابكِ معنا بإخلاص

* * *

رحل

والشمس ظلت تطلع ! والقمر ظـل يتلكأ في الدرب .. والخريف قال للذعات ليالي تشرين الباردة انه سيعود ..

وعلى قاسيون أقف .. ودمشق ما زالت حفنة أضواء مرشوشة في عتمة القاع .. وأنا أمد يدين صغيرتين فاحتوي دمشق بين كفي ، أرفعها من

القاع ، أدس وجهي فيها بحنان ، أبحث ، في كل شبر لنا حكاية .. أبحث عنا .. لا شيء .. لا أجد شيئاً ..

أحقاً كنا يا غريب ؟

* * *

تمزقي

تمزقي عروق الليل أنت امتصصت الحكاية .. تمزقي .. انزفي رحيق اللقاء .. انزفي حسرة الوداع . هزي جذور الموج .. جذور قاسيون .. جذور عمر كان لنا .. أهكذا يمضي ظله الكبير المضيء ؟ أهكذا تجمدين، تصمتين ، تتجاهلين .. وأنا لولاه ما عرفتك يا ليال .. يا نشوة ما كان ، وأحزان ما لن يكون .. ماذا أقول ؟

* * *

أحقاً كنا يا غريب ؟

فلتنكر الريح والأمواج والقمر ولذعات الخريف الباردة . فلتلحد الطبيعة بنا .. بلك في أعماقي أتحداها جميعاً .. برسمك الموشوم في مقلتي، بصوتك في حلقي أقول : كنا وسنكون .. غداً تعود يا غريب ، اليوم غداً ، وتعود تمر الأيام .

١٩٦٣



كلمات دافئة

صيدي .. وقتلاي .. وحطام مراكبي .

والدوار ، ومرارة الغثيان ، ورماد الخيبة .. والمنارات المطفأة ، وخرائب الموانيء .. وستة أشهر انقضت منذ افترقنا .. وألف حكاية ملل تنحشر في حلقي حزمة من الأشواك .. وأنت يا أنت ... ووجهك مشتول وراء الأشياء كلها ، وراء المنارات والأشرعة التي يمزقها المطر ، وجهك أنة خافتة رتيبة أظل أسمعها رغم الدوامة التي أخلقها والرياح التي أهيجها ، والمعارك التي أفتعلها هرباً مما كان .. ووجهك أبداً خلف الأصوات والألوان ، وسحر أعوامك الأربعين ، ونكهتها وطعمها طعم الجمر والدموع ...

ستة أشهر ولعنة أعوامك الأربعين تقذفني بلا رحمة من درب الى تيه الى ضياع في مدن غريبة مجهولة .. ستة أشهر وشبابي يتمزق على اسفلت شوارعها ويتجرح ويذوب وأنا أسير وأسير وعند كل منعطف أحبس أنفاسي وأقول سوف يظهر خلف هذا المنعطف !.. سوف يطل الآن ..

ستة أشهر ، وكل ليلة أقف عند شاطيء البحر وأنظر الى البعيد البعيد أتمنى أن أرى الضفة الأخرى للبحر حيث أنت ، وأحاول أن أقنع نفسي بأنك ما زلت قريباً جداً .. هنا .. على الضفة الأخرى فقط !

ستة أشهر وأنا لا أجرؤ بعد على التصديق .. أرفض الاقتناع بأن كل شيء قد انتهى والشلال توقف عن التدفق ، والآلهة كفت عن العطاء ... وانني أنا ، بيدي التي ترتعش حباً حينما تخط اسمك ، بيدي هذه وضعت النقطة الأخيرة في سطر حبنا وصممت على أن أبدأ سطراً جديداً ...

ستة أشهر .. صيد .. وقتلى .. وحطام مراكب .. وحروفي التي كانت كأطفالي صارت تنظر إلي بشراسة وحقد ، صارت غريبة عني تآمـرت معك علي .. ستة أشهر وأنا أهرب منها ، أخافها ، أعرف ان رائحتك تفوح منها ، أنفاسك ، نبضك ما زال يخفق فيها .. عيناك تضيئانها .. وكنت أعرف ان خلاصي يكمن فيها ، انها وحدها — ان انعتقت — قادرة على ان تمنحني حريتي من جديد . وحاولت ان أقسرها عـلى ان تنضم الى بعضها من جديد لتكون لسواك ، لكنها كانت تهرب من بين يدي وتنزلق من بين أصابعي وتقفز عن المنضدة هاربة كفريق من الجنود المهزومين ، يتعثرون بالهشيم والحريق وتنطق عيونهم الصغيرة بالاتهام والحنق ..

وحاولت ان أكتب لك .. أن أقول لك لماذا انسللت من حياتك .. وأعترف لك بأن الشلل أصاب يدي ودموعي وأفكاري .. وسري الغامض يتوسل إلي بعينيه نصف المغمضتين وجبينه الشاحب ، أن أبقيه في ركنه المعتم ..

وحاولت أن أكتب حكايتنا ، لكنـني كنت أحس وأنا أكتب بأنني أحنط هذه الحكايـة التي كانت تنبض إخلاصاً وصدقـاً .. أمسخها .. أشوهها .. أدفن حدة المأساة في قالب اللغة .. وصمت .. ورضيت بالهدوء المسحور الذي نصب نفسه حارساً على أشيائنا ..

حتى وصلت رسالتك الأخيرة ..

شكراً لسمك ، لمعولك وسياطك .. شكراً للطعنة فقد كان فيها بعثي وخلاصي .. وكان فيها انعتـاق حروفي من عبوديتك .. للوهلة الأولى لم أصدق .. حتى خطك الذي أعرفه جيداً أنكرته .. ثم بـدأ الضباب ينبع من جرحي ليغمر وجهك .. والصدأ ينبت على ضحكتك .. النجمتان في

عينيك انطفأتا .. وأنا أعدو وألملم نفسي من شارع مقفر تشردت فيه ومن صحراء تصفر فيها الرياح ومن ليال ماطرة ومن رحلات خيبة وملل .. ألملم نفسي كي أقف أمامك عملاقة التحدي ، كي أصرخ لا ، كي أجد دربي ، كي أمضي فيه وحدي صلبة متماسكة ..

وحروفي عادت إلي، تحيط بي تمد لي جسراً الى وديان ليس لرائحتك فيها أثر ولا لظلك .. تتفجر في صدري كنبع من شرر شره الى التدفق والعطاء ..

وبعد ، شكراً لسمك وسياطك . لقد كان فيها خلاصي .

١٩٦٣

كنت أتمنى يا زوجها ... ؟

اذن انتهت اسطورتنا أيها القرصان الذي مر ببحاري الآمنة ، فاستباح أسرار جزري ، وغرس رايته فوق شمسي ، ثم مضى بعد أن مزق أفقي بسيفه وخلف في كل مكان رائحة الهشيم والدمع والرماد .

* * *

اذن انتهت أسطورتنا

دمرها زلزال شكوكك ودفنها طوفان صمتي ...

شكوكك وأنت تتساءل أبداً . ترى من هي : من هي ...

كنت أقرأ في عينيك المغمضتين ما تأبى شفتاك البوح بـه .. وكنت أرى عشرات الصور المختلفة لي تتعاقب كشريط سينمائي خلف جفنيك ...

تراني تارة نقطة حبر طائشة تتقلب على صفحات الزمن البيض لتترك سطوراً شرسة جريئة ... وتارة غانيـة خطرة ... وتـارة أخرى أشارة استفهام متحركة .. وامرأة جادة .. وطفلة متعبة . ومغامرة لا مبالية .. وضائعة بين أذرع الرياح .. كنت لك الدهشة والحيرة والطفولـة وعبث الغواني .. وكان لك صمتي ...

لو كنت تحس وهج الصمت ..

لو كنت تسمع انتحاب الصمت وابتهال الصمت لتمزقت .. لعرفت مأساتي ... يا زوجها !!!

اذن انتهت اسطورتنا يا زوجها ... هل يدهشك أن أمضي ؟ لم تكن لتملك لي إلا فصلاً جديداً في مسرحية ضياعي ... وقد تعبت من الزحف على الأرصفة في ليالي الصقيع .. لم تكن لتملك لي إلا داراً ليست داري.. لم تكن لتستطيع أن تمنحني إلا شبه قدر .. شبه عطاء .. وكنت أريد موقدك ومبكاك ونيرانك كلها .. وكنت أتمنى أن أرى الدخان يتصاعد من رؤوس أصابعي حينما تسمرني نظراتك الى شاشة وجودك .. أن يكون لشفتيك أبداً طعم الجمر .. ان يكون للقائنا علانية الرعد ولامبالاته ..

كنت أتمنى أن تمنحني شيئاً كبيراً ، فرحاً كبيراً ، مأساة كبيرة ، حناناً كبيراً .. أي شيء يليق بما أردت لك أن تكون لدي ..

وكنت أبكي بصمت لأنك لست لي .. لأنك في عمري لا تملك إلا أن تكون ظلاً .. لأنك المجهول الذي يرسم قدري دون أن يدري يا زوجها .. لا .. لا ألومك .. لا شيء سوى انني انتحب بصوت عال...

* * *

ويوم أردتَ لنفسك أن تكون مجرد ضيف في مقهاي رفضت .. لأنك شيء آخر .. لأني أردت لك أن تملك كل شيء أو لا شيء ..

* * *

ماذا كنت تتوقع ؟

ماذا سوى أن أهرب لأنبش الوجوه من جديد بحثاً عن رجل عيناه نجمتان تشعان حناناً أخضر ، كعينيك ؟ ماذا سوى أن أعود الى عشرات الدمى التي أملكها ، ادنيها وأقصيها ، أحنو عليها ثم أدمرها كأية طفلة ملول ...

وأنت ... أبداً ... أنت ... قسوتك الحنون .. أبداً شعاع عينيك الأخضر أعود اليه بين دهر ودهر .. يغسلني ، يحنو على تشردي ، ثم يرمي بي من جديد الى ضياع أبعد وتشرد أقسى ..

* * *

وأنا ، سأظل أبداً جزيرة الرعب التي تجذب أشجع القراصنة، تتحدى أشجع القراصنة ليلقوا الهزيمة عند أعتابها ..

أما إذا جئتني ذات ليلة مجدولاً بالتعب والوحدة والغربة ، فستستحيل جزيرتي الى مرفأ أمان لوقع خطاك .. الى غابة حنان ووداعة ..

أما الآن ، فلا تلمني يا زوجها ...

١٩٦٣

يوميات فتاة مريضة

الليل وتابوتي وغربتي .

لا شيء سوى خيوط المطر يشدني الى دنيا الأحياء .

وأنا غريبة .. شرارة في صدر الجليد .. جناح فراشة في كهف الرتيلاء .

أنامل المطر تدب على النافذة ، لن أفتح النوافذ للريح !.

يا وجهك الصامد كسنديانة فخور ، ياغموض كاهن لن يموت. لماذا حدثتني عن المجهول الرائح الذي يقطن مكاناً ما في مدينتنا يوم سألتك عن معنى لوجودي ؟

لماذا علمتني منذ طفولتي أن أبحث عنه،وقلت أنه ساعة يتوهج، يضيء لي دربي : كل درب وأية درب .

لماذا يا أبي ؟ الآن عدت من رحلتي ، آخر رحلة ، الآن أسجد في تابوتي لتابوتي ، لصمت اللوحات البله والنور الباهت ، لا يشدني الى دنياك سوى دبيب أنامل المطر على النافذة ، لن أفتح النافذة ، أبداً لن أفتح النافذة للريح . الآن عدت من رحلتي ، كل رحلة نحو وجود

الآخرين فشل . «أنا» تلك الحقيقة التي أحس انهـا حقيقة ، لن يدرك حقيقة أبعادها وعذابها إلا أنا .

الطبيب يقول ان مرضي الوحيد هو انني أرفض ان أشفى . هل تود ان تسمع الحكاية ؟

* * *

مرة قلت له : أيها الرجل .. هل يقطن المجهول الرائع في عينيك ؟ أيها الرجل ؟ ماذا أقول للمطر ، إن رحلت ودق المطر بابي ؟

ماذا أقول للشتاء اذا انسكب في مفرق شعري ، وأغرق كتفي وعنقي برعشات الصقيع ؟

ما أقول إن رحـل الدفء في طيات معطفك يا ابن السفوح السمر ؟

مرة قلت له هذا كله .

مرة غرست أعصابـي في أعماق عينيه ، انسكبت في فلكها وسبحت كوكباً حالما ، نبشت مداراتها ، لم أجد المجهول الرائـع ، لم أجد أي مجهول ، كان في عينيه خول مستنقع مهجور إلا من الأفاعي والطـين . وكان مزيفاً كمأتم ثري ، ضاجاً كطبل . وعرفت ان آدم لم يولد بعد وحواء لن تسكب طيبها ونيرانها لرخاوة الطين .

* * *

وأعود ارعف ايامي وذكراه .

مرة ، قسمات وجهه سكبتها في قسمات وجهـي .. أذكـر ابتساماته فأبتسم .

يا عينيه . يا نجمتين انطفأتا في وحشة نافذتي . ماذا أقول ؟. كنت أبحث عن المجهول الرائع ، عن قوس قزح خفي يلقي بظله على وجودي الشفاف الأبله ، وحكاياه كانت تسليني ، ولم تكن تقنعني ، والمجهول الرائع ،أبداً لم ينبت بين أهداب رجل .

* * *

المدينة .. لا نملك فيها شيئاً .

الشوارع لجنون السيارات ، المطاعم لبرقبها الجياع .. الفتيات ليهرمن . الصدور ليحرقها الدخان والفراغ والسأم .

الآخرون عالم غريب ، نعرف انه ينظر الينا ولا يرانا ، يخاطبنا دون أن يسمع حجتنا ، يفرض قوانينه على كبريائنا دون أن يحترم وجودنا .. رقم .. أنت وأنا مجرد أرقام في سجلات المدينة .. أنت وأنا لا شيء في نظرها سوى اسم في سجل المواليد ينقل بعد حين الى سجل الوفيات .

المدينة . لا نملك فيها شيئاً . المجهول الرائع لا يقطن فيها .. تراك خدعتني يا أبي ؟

* * *

الى تابوتي أنسحب ، الغرفة باردة ، أستسلم للفشل، وأمتد في وجود الآخرين ظلاً لا يدرك ، لا يمزق ، يكتشفون غربتي حينما يغرسون أنيابهم في ظلي ، فيرجع الظل ساخراً يائساً

أشرعتي للمتها عن جزر حقدهم ، طفولتي ، صدقي ، آحلام السندباد وعلاء الدين،انطفأت كلها في مقل نسور ضلت طريقها الى قمم السراب.. حماستي تنوس في أراجيح السأم .. أنا بلا لون ولا ظل ولا صدى .

* * *

قال متجهماً : مرضها الوحيد هو انها ترفض ان تشفى .

أراه ظلاً شاحباً يعيد ويعيد هذه العبارة ، وأضحك منه ، من إبره وأدويته وأوامره بألا أغادر الفراش .. لو يعرفون !

كل ليلة،أقلع مع الصمت الى موانيء لم تلوثها ضحكة رجل كاذب .

أمتطي طواحين الهواء ، أصلب توثبي على رتابـة أضلعها . أداعب دون كيشوت . أبعثر لهفتي في كهوف لم تفجع صخورها بخيبـة امرأة ، أعاقب عقوق الوجود بأنوثتي العاقة ، المجهول الرائع لم أجده حتى في عالم الوهم .. تراك خدعتني ؟

يا وجهك الصامد كسنديانة فخور ، من أعماق تابوتي أودّ لو أحدثك عن عقم الأشياء ، عن اللاجدوى التي تنبع من عيون الآخرين ، عن الغربة السحيقة التي تغلفني بآفاق من العزلة واليأس ، الخيبة الظامئة في كل كتاب قرأته ، الوميض الذليل الخفي في كل حرف انساني فخور عرفته.

ذلك المجهول الرائع ، النشوة الكبرى الحقيقية ، المعنى الخفي الكامن وراء عقم الوجود والأشياء . أحقاً انه موجود ؟

* * *

الليل وتابوتي وغربتي ..

لا شيء سوى خيوط المطر يشدني الى دنيا الأحياء . وأنا غريبة ... شرارة في صدر الجليد .. جناح فراشة في كهف الرتيلاء ..

المطر يقرع النافذة .. ماذا لو فتحتها قبل ان أموت ؟ أفتحها ..

ينسكب الليل طليقاً مفتوحاً كثوب غانية .. الريح تنشد .. أسمعها تنشد .. في مجرد قدرتي على السماع نشوة .. المطر يغسل وجهي .. في مجرد قدرتي على الاستسلام لدبيب أنامل المطر نشوة .. رائحة التراب المعفر بالمطر .. رائحة طفل دافىء شبع .. في مجرد قدرتي على الشم نشوة ..

قلاع غربتي تهوي .. أنفتح للوجود كما لم أنفتح من قبل .. أحس برغبة حارة حقيقية في أن أمتلك هذا العالم الذي يقع تحت حواسي والذي أخلقه أنا بإدراكي كنهه .. أمنحه بركة الرائحة واللمس والصدى .. أية حروف خرساء كان يصبح العالم لو لمْ أقرأه بأناملي وأهدابي ، لو لم أحتضنه وأسبغ عليه بركة أن يوجد في خاطري ولو لبرهة واحدة .. ماذا يكون العالم اذا لم أعد تشكيله في لوحة معبرة ناطقة مسموعة هي أنا .. أنتشي بالحياة لمجرد أنني أحيا ..

المدينة ما زالت هي هي .. لا نملك منها شيئاً .. والآخرون ما زالت كل رحلة نحو وجودهم عبثاً .. لكنني لم أعد منبوذة .. روابط بدائية تشدني الى المطر والعاصفة وأغاني الريح .. المجهول الرائع يقطن في أعماقي

منذ أعوام وأنا أبحث عنه .. هو أنا .. هو ايماني بأني موجودة وبأني ضرورية كي يرتسم العالم في صفحة بحيرات أعماقي ..

من قال اني مريضة ؟

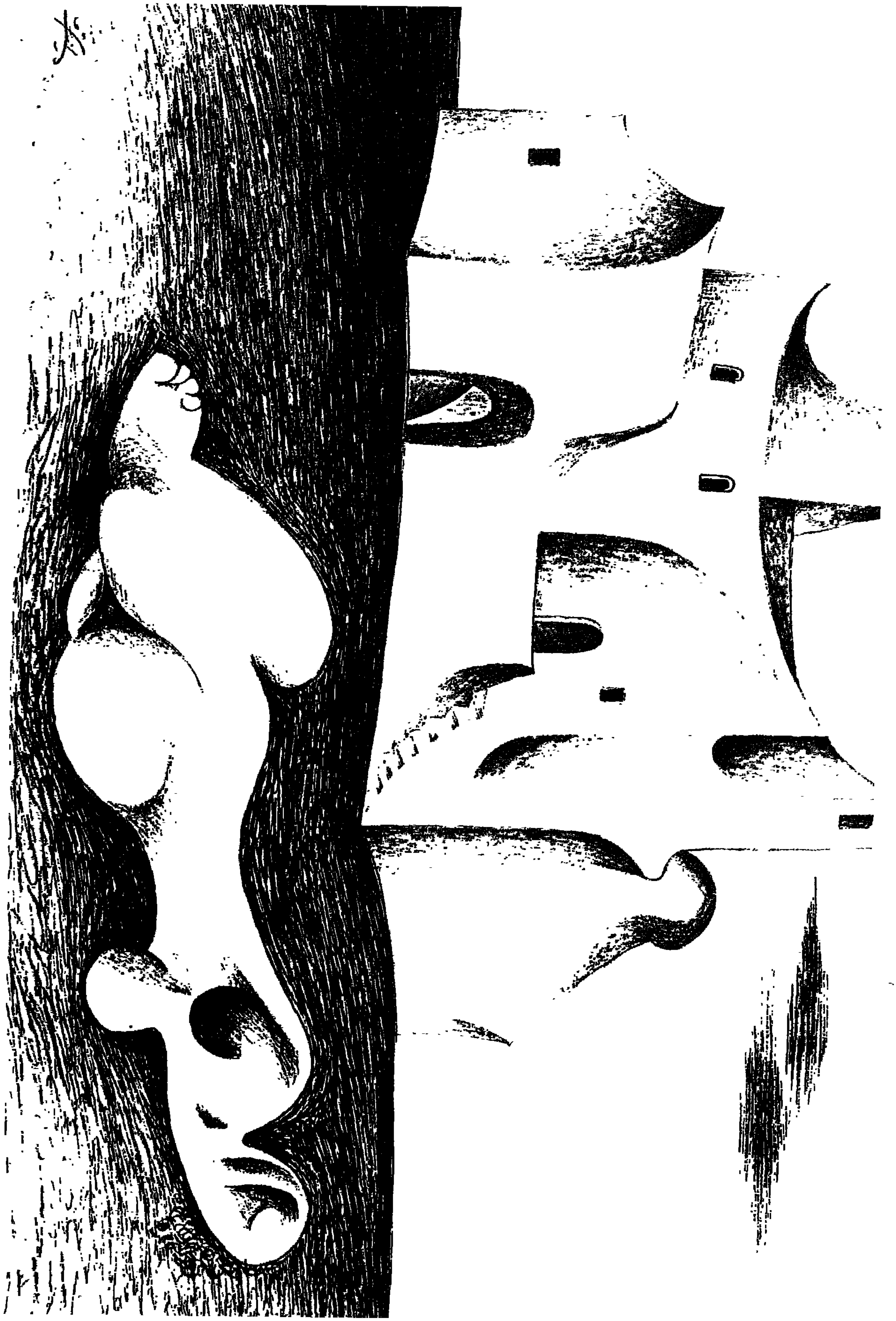
***

رائع هو الصباح في يوم شتوي مطير ..

رائع أن أسير .. أن أرى الآخرين في الدرب يحملون في وجوههم أحزانهم وخيباتهم وأفراحهم الصغيرة .. رائع أن تومض عيناك في دربي من حين الى حين .. رائع أن أكون جزءاً من هذا العالم الخالد .. رائع أن أذهب الى عملي ..

من قال اني مرضت ذات يوم ؟

١٩٦٣



وجهك الغامض زهرة الليل الوحشية

منذ ساعات عدت يا صديقي ، ويدك مـــا زالت تنبض في يدي ، وقامتك المشيقة نسمة تهب الى جانبي ، وسواد الليل مـا زال يتغلغل في سواد شعرك حتّى ليتصلا ، ويخيل إلي ان حدوده ضاعت في حدودك ، وانك قطعة من رهبة الظلمة وحنينها الى الرحيل .. وان وجهك الغامض زهرة الليل الوحشية التي تغرق جذورها في أصقاع الصمت والتأمل ..

لما دلفنا من الزقاق المظلم الى الشارع الرئيسي المزدحم، أدركت أننـــا اقتربنا من دارك .. وكان علي أن أقول أشياء كثيرة قبل أن نفترق حقاً .. ودائماً ... وكانت كلماتي تتعثر بالدموع التي تجمعت في حلقي .. مـــاذا أقول ؟ ان علينا أن نفترق ..

وقد قررنا أن نرضخ .. وتقف أمامي .. يواجهني وجهك لغزاً دامعاً متعباً .. ومـــن جديد أغوص بحثـــاً عن كلمـــة .. أنـــا القاصة التي تبكي المدينة لقصصها .. هذه المرة لا أستطيع أن أقول شيئاً ، وعلي أن أبكي وحيدة من أجل قصتي الوحيدة الحقيقية .. وتهمس : «يا حلوة عندما نفترق .. اكتبي قصتنا .. هذا رجائي الوحيد » .. وتغيب وراء الباب .

منذ ساعات عدت ويدك ما زالت تنبض في يدي،وهمساتـــك تحوطني من كل مكان : عندما نفترق .. اكتبي قصتنا ..

منذ ساعات يا غريب وأنا أكتب وأمزق .. كتبت عنك ، عن نفسي : كتبت حكايتنا مع الآلهة ، مع الآخرين .. مع أنفسنا ..

كتبت كل شيء وعدت أقرأ ما كتبت ... فغلبني اشمئزاز حقيقي مفجع .. لو انك ترى يا غريب كيف مسخت الحروف أشياءنا .. لو انك تحس معي عجزها عن أن تسجل ما قلناه ، وما فهمناه دون أن نقوله .. لو انك تعرف معنى الخيبة معنى القرف المدمر الذي غمرني ساعة رأيت قصتنا كيف استحالت بعد ان كتبتها ..

ورميت بالقلم جانباً ورفعت يديّ . خيل إليّ انهما يدا مجرم ملطختان بالدم ..

لقد اغتلْتُ تجربتنا ، لقد خنتها حينما صببتها في مثل هذا القالب الممسوخ .. يا غريب ... ان الكلمات مهما كانت صادقة تحنط التجربة الحية الصادقة ..

يا شقي،من أعماق الهوة أهتف باسمك ، من أعماق الهوة القائمة بين اللغة والاحساس أناديك ، فرغبتك الأخيرة في أن أكتب قصتنا لن تكون إلا إذا خنت حيوية قصتنا وصدقها وعمقها .. ترى هل ترضى بأن أخونك كي أحقق رغبتك ؟

يا زهرة الليل الضارية علمني ، علمني كيف أدق الحرف بإزميلي أعمقه ، لأغرق في أعماقه سمو حكايانا وأفكارنا .

كيف أحرث الحرف ، أبدع في سمائه غيمة وشمساً لتنبت أحزاني في قحطه صفوفاً من الاقحوان والبنفسج اللذين كنت تحب ..

علمني كيف أبعث العبير بين السطور .

كيف أرشق النقاط نجوماً دافئة في سماء ليالينا الدافئة ..

علمني كيف أردم الهوة المفجعة بين الفكرة في ذاتي والفكرة نفسها حينما تخرج من ذاتي الى قالب اللغة ..

علمني كيف أخلق التطابق بين أحاسيسي وبين هذه الأحاسيس بعد

ان أرسمها في وجود الآخرين بحروفي .. ألا ترى انني الآن ، والآن فقط، أدرك أنني أديبة فاشلة ؟ وان كل ما سبق وقلته كان تخطيطاً مزيفاً لتجربة زائفة .. يا غريب.... ألا تفهم ؟ انني اكتشف ان العالم لم يعرف حتى اليوم عبقرياً واحداً فعلاً .. يبدو ان العباقرة الحقيقيين ماتوا جميعاً دون أن يقولوا حرفاً واحداً .. لقد كفوا عن الكتابة في اللحظة التي وجدوا فيها الحقيقة .. لقد اكتشفوا ان اللغة عاجزة عن استيعاب الحقيقة .. وكان عليهم أن يشوهوا الحقيقة كي يقولوها .. ففضلوا ان تظل في عليائها المجهولة على أن تهبط الى عوالم الآخرين مشوهة .. يا غريب .. هل تفهم ؟ اني اختار لحكايتنا الموت من بعدنا على التشويه .

ماذا أملك سوى الصمت المفجع .. محكوم علينا بالسقوط في هوة الصمت المرعبة القائمة بين الفكر واللغة .

ومن هنا أناديك لأقول لك ان يدك ما زالت تنبض في يدي وهمساتك « اكتبي قصتنا ... هذا رجائي الأخير » تحوطني من كل مكان .. لكنني لن اكتب .. لا أستطيع .. لن أخونك .. لن احنط حكايتنا .. هل تفهم ؟

١٩٦٢

دهاليز .. لا شمس فيها

حكايتنا واحدة أيها الهارب من شرنقته ، الرامي بنفسه بين أحضان قلوب الآخرين ، ماذا حصدت سوى الشوك والغثيان ؟ الرحلة ، كل رحلة نحو وجود الآخرين فشل .. عد الى شرنقتك . رمم الفجوة التي حاولت الهرب منها بلحمك ، السلحفاة ما هربت قط من صندوقها . السلحفاة عاقلة ! سندريلا السعادة اسطورة ، الصق على كل جرح ابتسامة . امسح خد أحزانك بتورد ضحكة . ارسم اللوتس والنيلوفر على صفحة وحشتك الراكدة .. صمت الوجود أكبر من ضوضائك .. لا تبحث عن خيمة وواحة ، فصحارى الشرنقة لا تتسع إلا لك ، وشمسها لم تخلق إلا لتحرقك وحدك .. استسلم .. زبد العاصفة سوف يحملك في درب الفصول الأربعة .. لتلف بك عجلة الأعوام المهترئة في ساقية العمر الضحلة .. وأنت ستظل رغم كل شيء وحيداً وإحساس بالغربة يطعنك ..

رغم كل شيء قل لقدرك : « أتحداك بضعفي » ! ابتسم .. فالسعادة (المقطرة) التي طالما حلمنا بها لن تكون .. سعادتنا في ان ننتصر مهما مزقنا نصرنا ، وان نعرف حقيقة وجودنا البائس،ونحبه رغم كل شيء . حكايتنا واحدة .. أنت وأنا .

نحن الباحثون عن فرحة بكر لا تموت في عالم تموت فيه مثلنا وعهودنا

وضحكات الذين كانوا أصدقاءنا .. الممزقون شرانقنا من أجل رحلة .. عمرنا سلسلة رحلات عجيبة للبحث عن سنديانة السعادة الهرمة في جزيرتها الاستوائية .. كلنا سندباد وليس في افقنا نجمة .. وكل رحلة خيبة وتقلص جديد الى أضيق أبعاد وجودنا ، واظلم ركن في شرنقتنا .

حكايتنا واحدة .. أنت وأنا ..

ما زلنا ندفع من أعصابنا ثمن آلهة التمر التي كنا قد خلقناها وعبدناها.. فلما طلعت الشمس عرفناها فأكلناها .. وانطلقنا نبحث عن إله جديد .. لاهثين في موكب الخريف . مسحوقين تحت مصنفاتنا . منكمشين خلف نظاراتنا وعقدنا . قابعين في أعماق هوات يأسنا . حالمين برنين مرساة ذهبية في ذهول جمودنا .

حكايتنا واحدة .. ورحلاتنا متشابهة .

رحلتي الأولى بدأت منذ ثلاثة أعوام .. قرضت خيوط شرنقتي وتسللت منها .. وكان العالم رائعاً والليل شالاً زنجياً تتخطر فيه أوهامي . وأنا نسمة مراهقة من أنسام نيسان الحارة .. وقررت منذ البداية ان اصطاد نجمة الصباح . لذا نسجت من أبخرة أحلامي شراعاً غرست صاريته في القمر ثم امتطيت القمر وأبحرت به في أوقيانوسات السماء لاصطاد نجمة الصباح ، نبشت مدارات الكواكب وتسللت الى كهوف الأفق ولم أجد سنديانة السعادة الهرمة . وخلفت أصدقائي وبدأت أهوي وحدي .. ورأيت الشهب تعيش نشوة الاحتضار وسحر التلاشي الوضاء في مقلة الليل فحسدتها لأن شراع مراهقتي خر صريعاً يوم أشرقت شمس الواقع كلهبة شمعة باهتة، محرومة من جلال ميتة الشهب وسحرها .

وانسلخت يومئذ بحدة عن ليلي الغجري وخلفت ورائي ارجوحتي الفارغة بين أشجار بلهاء الطول تنوس وتنوس ولا تجد من يمتطيها سوى الرياح .. وكنت أسمع من بعيد غمغمات الرياح حول حبالها البنفسجية ، لم تعد أنغامها الطفولية تقنعني .. والتهمت أحد آلهة التمر التي قدستها ..

ورجعت الى فجوات شرنقتي أرمم الفجوات بلحمي وألصق على كل جرح بسمة .. لا أحد في الوجود يستحق شرف الشماتة بي .. واستيقظ السندباد في أعماقي من جديد .. فقرضت شرنقتي وبدأت رحلتي في عيون الآخرين.. وكانت العيون دهاليز مظلمة ، لا شمس فيها ، لا جزيرة مرجـان ، لا سندبانة سعادة،لا شيء سوى شهوة زهور اصطناعية الى العبير وخيبتها وقلق عاصفة وسأم شتاء. بوحشية انفلتّ أقطف المحار من أسواق فارس وخيام بغداد وأضواء بابل .. وكنت أحدق في أعين المحار بينما يزحف في قلبي دخان خاشع . يوماً ما سأجد ان عيناً من هـذه العيون اللؤلؤة المنشودة .. هي المشاركة الانسانية الحقة التي أبدد بها وحشتي ومخاوفي .. وكان المحار يتكدس تحت شرفتي .. فارغاً بارداً ، كأنـه لم يسمع قط جلال أغاني الأمواج ، وكانت النسور تمر بشرفتي لتختطف البقايا !!

وعدت الى شرنقتي أرمم فجواتها بلحمي وألصق على كل جرح بسمة. كان من الصعب أن أبكي ، أنا التي تألمت حقاً ..

حكايتنا واحدة .. أنت وأنا .

عنادي هو عنادك .. وإصراري هو إصرارك .. وسندباد ظـل يعود كل مرة بلا شراع ، فلنعد الى شرنقتنا بدون تخاذل ، هزمنا مرة حينما اكتشفنا وحدتنا ، وسننتصر في ان نخلق الفرحة البكر من ذاتنـا ، رغم الثلج الأسود والمطر العقيم والبرعم الذي لا يزهر والزهر الذي لا يعقد . رغم أقنعة الآخرين وموسيقى الشر في مجاملاتهم .

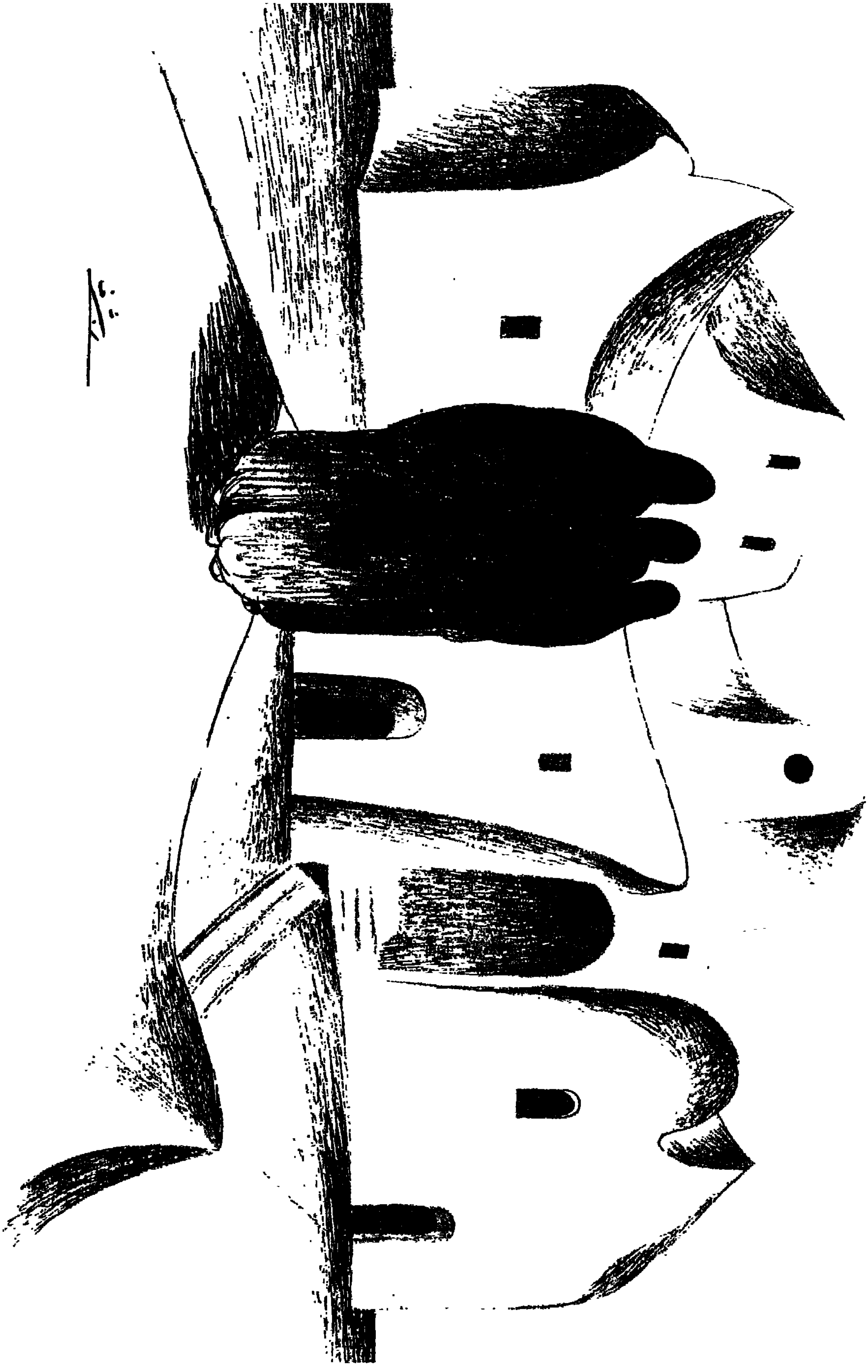
فالسعادة ليست سندبانة ، ليست شيئاً قائماً بذاته .. انها قدرتنا على تطعيم شقائنا الانساني بالتماسك والرضى والتحدي .

١٩٦٢

آه يا صديقي الحبيب .. بردى

ساعة ردهتنا الكبيرة تشير الى السادسة بعد الظهر . باب دارنا يفتح. المجنونة التي هي أنا تهبط الدرج وتغرس كعب حذائها الرفيع في اسفلت الشارع المنصهر . وهي تفعل هذا كلما أمرتها دقات الساعة الست بذلك . رابطة عجيبة تشد ساقيها الى العقارب السوداء البطيئة التي تركض على ما هي عليه من بطء ، تأمــر وتحرك المدينة بأكملها وهــي أسيرة الجدار المصلوبة ...

وأسير .. يلذ لي أن أتأمل الأشياء حينما لا أكون قد نسيت نظارتي !.. الصيف في مدينتي أنامل غجرية لعوب تلون كل شيء وتعبث بكل شيء.. تلون ثياب الحسان وتمتد بأظافرها النزقة الى اكمام الشتاء الطويلة فتمزقها لتكشف عن أذرع بضة .. ترش الوجوه التي تومض حولي وأمامي بعرق لزج يتبخر مع أنفاس المتعبين المسرعين الى مكان ما .. ما الذي يركض الانسان خلفه – غير الموت – ان يلهث ويتسلق العقبات طبيعي اذا كان يعرف أين يذهب وماذا يريد . ولكن ، الى أين يذهب ؟ ولماذ أركض وأتعثر وأناضل ؟ قلما أجرؤ على أن أسائل نفسي هذا السؤال .. مرساتي أحملها منذ مددت يدي نحو المجهول بلهفة ، بحثاً عن وتد أتمسك به في عدمية الزيف .. مرساتي ثقيلة تلسع ظهري حينما تقسو الشمس ..



مرساتي عنيدة تجرح الأشياء وتعريها ثم تلفظها . مرافىء المستنقعات لم تغرّها . المستنقع ساحر في ضوء القمر ، الزهور المرمية في حضن مياهه الراكدة تثير الخيال الأعشى .. برود الليل يخنق عفونة المـاء ، وظلمته تخفي ضحالة الزوايا وما يدب فيها . قمر الخيالات والحب السطحي الذي تبدأ حدوده عند ربطة عنق أنيقة وتنتهي عند ربطة حذاء جديد .

ومرساتي تهوى حرارة التجربة ومرارتها ، لأنهـا تضيء بالرغم من انها تحرق . ولأنها حينما تضيء تكشف عن ديدان المستنقع المخاتلة وعن تلون المستنقع وهوامه ..

مرساتي هجرت مرافىء الضجيج لأن فأر المطبخ يملأ الدنيا ضجيجاً اذا حرك ذنبه قرب الأوعية النحاسية .

يا مرافىء الدفء والأمن والحنان .. يا ضائعة في خلجان شرقية مزهرة الأفق .. يا غارقة في روحانية ليل صامت .. لماذا ولدت الحقيقة خرساء؟ لماذا تكون أعمق المياه أقلها ضجيجاً .. يا غموض رجولة حارة كالتوابل.. أنتظر مرساتي فقد أثقلها حنين الحديد المحمى الى فحيـح النشوة عندما يغمس في الماء ..

* * *

وأحاول أن أمزق حنيني الى الأشياء الغالية البعيـدة .. وأعود أتأمـل الناس . أكتشف انني وصلت الى المكتب المنتصب أمـام بردى في عمارة شاهقة .. أرى الناس قد تجمعوا حوله .. عشرون عاملاً يدفنونه !!.. خمسون ماراً يشيعونه متفرجين بلامبالاة بلهاء على صديقي الذي سهروا عند ضفافه .. صديقي الذي طالما واساهم ورطب وجوههم الجافة وانطلق من (بحراتهم) في السهرات الحلوة شلال ضياء .. بردى ... انهم يغطونه !.. لماذا ؟ نافذتي المسكينة ماذا فعلت حتى ينتزعوا من صدرها أجمل ما تتحلى به ؟.. لن أنظر خلالها مستنجدة بعد اليوم لأن صديقي يرحل الى أعماق الأرض .. آه كيف تجمع الناس حوله بفضول كأنه مشنوق في ساحـة

المرجة .. آه فكوك الآلة الضخمة كيف تحشو التراب بين أسنانها وتهيله.. آه نهري الوديع الذي ظل أبداً يخترق الشارع مجنون الحركة ، ويترقرق بصفاء انساني كان يغمرني بالدعة والعزاء، بينما تزعق الحافلات موتورة .. ويحرك الشرطي يديه فينسكب سيل من السيارات يصطدم بعضها ويعول البعض الآخر مع نواح عربة الاسعاف .. الأكداس البشرية تتلاطم مسعورة لاهثة في سباق أبدي مع الساعات التي تعبئها بنفسها، كأنها أحمق يسابق ظله !..

صديقي ظل وحـــده يترقرق بصفاء .. ببساطة صامتة .. يطوي في أعماقه حكايا حزينة وحكايا ضاحكة .. الشهداء الذين شنقوهم أمامـه في ساحة المرجة أسرّوا له بالكثير قبل وفاتهم . الثوار الذين هاجموا السرايا النائمة الى جانبه ليمزقوا الفرنسيين غسلوا جراحهم في طهره ووفاته ... العشاق الذين تعاهدوا بين خمائله .. وليالي معرض دمشق ..

آه نهري الصديق ! لماذا يدفنون آخر خيط يشد عمري الأهوج الى الصفاء؟ رغم اني أعرف رأي خبراء الصحة في دفنتك (يسمونها تغطيتك) .. رغم اني أعرف رأي خبراء المواصلات في ذلك، ورأي المهندس والميكانيكي وشرطي السير .. رغم كل شيء، أبكيك يا صديقي الصامت الوفي وتبكيك طفولتي المحزونة ..

١٩٦٢

الى .. مليونير تافه

السيد المليونير ...

أنا كاهنة الصمت . طفلة هرمة في الصحارى المقفرة، وحيدة كصدفة مهجورة . أحب الوجوه العارية وأكره الذهب والنفاق ..

شراعي ؟ لمن أرفع شراعي ما دامت الرياح قد مـاتت ؟ لمن تهزج عيناي وأهدابهـا خيوط صقيع ؟ لمن اسجد ومثلي مصلوبة فوق ألسنـة التافهين ؟

لمن يا زهر الليمون تنشر عطرك الدافىء نداءً ليلكياً مبهماً في عتمة غرفتي الصغيرة ؟

أي باب عدت تقرع أيها الغريب ؟ كيف تجرؤ عـلى أن تعود ؟ تطل أسنانك الصفر المدببة خلف ضحكتك الرخوة .

لماذا أصافحك ؟ اني أعرفك . لا تقـترب ، لست دمية في سوق الجواري،لست من رعاياك .

اقنعتك الملونة لا تخدعني ، ثيابك سوداء وذاتك ضحلة وذَهَبُك لا يبرر تفاهتك،لا أستطيع أن احتمـل حديثك وتملقك وأنت تباهي الوقت بطوله بألوان الربيع في ذاتك كما يفعلون جميعاً. لقد اكتشفتك فنبذتك.. أجل ! اني وحيدة وحزينة ، لا تقترب ، في عينيك لا تضيء منارتي..

يا ابن اسفلت المدينة ، يا ابن الطحالب ، يا رجلاً بلا جذور .. ماذا تستطيع أن تمنح طفولتي وكهولتي ،أي شباب تذكي كلماتك المزيفة في ذاتي؟

أعرف انك تخدعني ، اني أتجاهل ، لا أبالي ، اني واجهتك بالبلاهة، بالتغابي ، حتى سئمت .

فلتسقط أقنعتك الملونة المذهبة ! أعرف انك مزيّف ، فلتذر الرياح ضحكاتك وحكاياك!اني لن أصافحك ! أثير فضولك ؟. تريد أن تسمع حكاية عزلتي ؟ فليكن ، ما دمت لن تفهم شيئاً !

ذات أمس هو يومي وهو كل يوم ، كنت طفلة تحب القمر الذي يولد من قرميد البيوت في مزرعة صغيرة .

وكان كل شيء ملوناً ، وكانت وجوه أهل المزرعة وثيابهم وذواتهم رائعة الألوان ، فكانت الضحكات ملونـــة والحكايا ملونة تغسلها أمطار الشتاء ورياحها فما تزول الألوان من الأشياء وانما تزداد أصالة وتعتقاً .

قالت لي أمي : حذار من الهرب ...

ولأنها حذرتني هربت . قررت أن أكتشف المدينة الملاصقة التي سمعت عنها طويلاً والتي طال ما تأملت أسوارها الفضيـة المتوهجـــة في السحيق السحيق .

بنزقي الأهوج الى المجهول ، بطفولتي الملونة ، بثيابي الملونة طرت الى المدينة .. كان كل شيء مخضباً بدخان رمادي حزين .. وكان الآخرون يمرون بي كالأشباح .. وأدركت في لحظة رعب حقيقية ان لا ربيع في المدينة .. لا ألوان في الوجوه والنفوس والأشياء .

قلت في نفسي . سوف انتظر حتى يطلع الفجر ثم أقف في مكان ما لامنحهم أغنياتي .. علمتني قريتي العطاء .

وانتظرت طويـــلاً .. كانت الشمس تطلع وتدور في قبة الفضاء ثم تنفق ولا تضيء .. وسمعت العـــابرين يمتدحون جمالها .. فذهلت .. لو

انهم يعرفون الشمس حقاً ! وأدركت ان لا فجر في المدينة ورغم كل شيء قررت ان لا أهزم ، وان أغني .

ولما وقفت في الساحة الكبيرة وأنشدت بعفوية وبساطة أغنياتي الملونة ، تجمع أهل المدينة حولي يتحسسون ثيابي وطفولتي برعب حاقد . قلت في نفسي : « لا ريب في ان ألواني تدهشهم . سوف أرشدهم الى قريتي ، الى حيث تتفجر الألوان تحت الشمس » .

وتشاور أهل المدينة قليلاً ثم هتف كبيرهم : ان ثيابها .. وأغنياتها رمادية، انها قبيحة .

صرخت : أنتم لا تفهمونني .. الحقيقة ..

قاطعوني : الحقيقة هي الأمر الواقع !

صرخت : حاولوا أن تفهموا كي تكتشفوا أشياء جديدة .

قالوا : ليس في الإمكان أبدع مما كان !

قلت : دعوني أعُدْ ..

قالوا : من دخل المدينة مرة أغلقت عليه أسوارها الى الأبد .

قلت : سوف أبقى ، لكنني أرفضكم .

قالوا : نحن ، أو صحارى الصمت، هذا كل ما تضمه أسوار المدينة.

انهم يكرهونني لأنني لا أشبههم ، ان علي أن أصبغ ذاتي بالأسود ، وان اصبغ ثيابي وأغنياتي بالأسود، ثم ادعي انها هي في ذاتي أو تنفيني المدينة الى صحارى الصمت، ورفضت أن اصبغ ثيابي وأغنياتي ! واخترت صحارى الصمت .

وبدأت أصلي : يا صمت ، يا ابن الآلهة .

اغرس جذورك في أرض الحقيقة الصلبة ، اغرس جذورك في دنيا الجبروت اللامبالية، ، دعها تمتص كلمات بلا ثمن ، وأفراحاً ملونة عتقت عصوراً في كؤوس اغريقية مرمرية، يا صمت يا ابن الآلهة ، لماذا ولدت الحقيقة لأب غير شرعي فإذا بها تطرد من باب الى باب، وإذا بها تهان

وتدان في مدينة القيم المتعفنة ؟

يا صمت يا ابن الآلهة،اني هنا كاهنة جديدة .

إقطع لساني كي لا يضعف مرة عن قول الحق ، مزق جسدي كي لا تغريه توابيت الذهب المعلبة،واقتلع عينيّ قبل أن أبدلها بماستين وهاجتين، يا صمت ، برعب ميلاد الحقيقة في نفسي أسجد لكونك الرحب، للوجوه العارية أينما كانت ، دعني هكذا ، كياناً لا يدرك بالحواس المعتـادة ، كياناً مبهماً ؛ ضبابة متفجرة الألوان تحدت قِيَمَهُم ومفاهيمهم ورحبت بصحارى الصمت ، يا صمت العزلـة ، دعهم يثرثرون ، حديثهم من نوع لا يسمعه إلا من يقوله ! دارتهم مغلقة بلا شحنات عطاء .

لكِ وحدك ، للحقيقة في ذاتك أسجد .

* * *

وهكذا أيها الغريب المتأنق .

لما اقتربت مني ، لما غرقت في قالبك (السموكن) وابتلعت أقراصك المغذية،ثم همست بكلمات (كازانوفا) في أذني ، لما ظننت انك سحرتني ، وحملت راية دون كيشوت ومددتها على صخوري شارة نصر ... واجهتك بالصمت ، هل رأيت كيف يرقب نسر دودة تتسلق السفح لتغزو عشه؟!

لما ظننت انك تخدعني ،ان شعري المتناثر في الحفل مدارات في فلكك، كنت ازداد إيماناً بأن لا مفر لي من صحـارى الصمت ، وان تبرك في دنياي لا يعني شيئاً ، وانني لن أحبك ، ولن أحبك إلا إذا رضيتُ بأن أبدل عيني بماستين وهاجتين من سوق المدينة .

ورفضت . اني لن اصبغ ثيابي بالسواد ثم اتباهى بألوانها الموهومـة كما تفعل أنت،مهما كان الثمن .. هل تفهم ؟

كاهنات الصمت يحتقرن رجال الطحالب المذهبة ، يا عفن التبر !

* * *

يا صمت،يا ابن آلهة العزلة وسجانات الحقيقة،اني هنا كاهنة جديدة .

كل يوم يطل طارق جديد .

بين شفتيه حكايا كازانوفا ، وفي جيبه راية دون كيشوت، عيناه ماستان وهاجتان يرى الأشياء خلالها ، ووجهه رغم أقنعته الملونة رمادي .

كل يوم يطل طارق جديد ، ماذا أجيب ؟

وأنا ما زلت كاهنة الصمت والعزلة ،طفلة الصحارى الملونة التي تحب الوجوه العارية وتكره الذهب والنفاق .

شراعي ؟ لمن أرفع شراعي ما دامت الرياح قد ماتت ؟

لمن تهزج عيناي وأهدابها خيوط صقيع ؟

لمن يا زهر الليمون تنشر عطرك الدافىء نداء ليلكياً مبهماً في عتمة غرفتي الصغيرة ؟

١٩٦٢



رسالة إلى « لا أحد »

يا صديقي !

حينما نشعر بأننا جمرات نثرتها الآلهة في صقيع العلاقات البشرية لتفنى ببطء ... حينما نشعر اننا فترات صمت دامع في ضجيج المدينة الملون بأضواء الاعلانات .. حينما تتخاذل عضلات وجوهنا فترفض أن تضحك أو تعبس أو تعبر عن أي شيء معتاد يفهمه الآخرون .. حينما يحرمنا الله — ولو ثواني معدودات — من نعمة التفاهة وطمأنينة الجهل ، ندرك أن لا مفر من لحظات رعب العدم المطلق .. تلك اللحظات التي نواجه فيها بجدية أسئلة عجيبة: من أنا ؟ ماذا بعد ؟ ما معنى أن أكون ؟ ماذا أريد من الآخرين ؟

انها لحظات ما وراء الحب ، ما وراء الغريزة ، ما وراء التخدير والصداقة .. وندرك اننا رغم الأم الطيبة وماسح الأحذية الذي يقبع عند أقدامنا بصمت، وصبي البقال الأعرج ومؤتمرات نزع السلاح ، وحكايانا الشاحبة والمتوهجة، على الرغم من كل شيء نعيش لذعات أسى حقيقية ، لذعات انفصال تام .. هنالك شيء ما ، شيء حزين قابع في مكان ما.. هنالك آدم أعزل مجهول يواجه مصيره العادي بكبريائه العارية .. هنالك شيء ما .. قابع في زاوية ضيقة من أغوار انسانيتنا حيث تمتد أصقاع شاسعة من الوحشة والحنين المتكبر الغامض ... أعماق عجيبة الانسلاخ

عن حياتنا العادية ، لا تطولها أمواج الحب ولا الصداقة ولا تقوى على خرق عزلتها الأصيلة سعادة زواج أو دفء مجتمع ودود .. أعماق يضج بؤسها بالكبرياء ، بالعناد ، بالمكابرة ، بالإصرار على اليأس من وجود ذرتين متجاذبتين حقاً في كوننا كله ..

انها آفاق الرعب الحقيقي ، أعماقنا البكر ...

أما تمنيت أحياناً في ثورات غربة عميقة الجذور أن تقول شيئاً ما ؟ أن تبحث عن شيء ما في المجهول ، في الصمت ، في اللاشيء ؟

أما أحسست مرة بحنين الأعماق البكر الى لذة الاعتراف أمام عينين غريبتين لا تدري أي مجهول فيهما استهوى مجاهلك ؟ أما أحسست مرة بالتهافت على نشوة الانبلاج في نفس لا تدري كيف أثّرت على نفسك.. لا تدري لماذا هي بالذات أسَرتك ؟ كأنما كنتما صديقين منذ دهور قبل أن يوجد الآخرون وأنظمتهم وشرائعهم .. انك لا تريد صداقة .. لا تريد حباً .. لا تريد شيئاً أطلقت عليه أسماء .. لا تريد أحاسيس استهلكت .. لا تريد انفعالات وجدت في صدر انسان قبل أن تخلق في صدرك .. أعماقك البكر تبحث عن كلمات بكر ، علاقة بكر تستطيع أن تتجاوز أسوارها العجيبة .. ويمر القطار سريعاً .. لا نستطيع أن نغتسل في النهر نفسه مرتين .. ينطفىء الشهاب ونتشرنق من جديد .. تغرق ذاتنا في ذعر ذاتنا .. الرعب في الأعماق البكر يبتلع كل سراب ..

ماذا نقول حينما نتصرف كالناس المهذبين ، لكننا حين تواجهنا وجوه أحب الناس الينا نكتشف أحياناً انها مسطحة بلا أبعاد، أحببناها لأنه كان علينا أن نحبها ، بينما تتكامل الحقيقة في العميق العميق وتبعث بأصدائها الى دنيا وعينا : ماذا تستطيع الوجوه المسطحة الممسوخة أن تمنح ؟

ونحسد السعداء ، الذين يحملون أعماقهم البكر مهملة منسية .. ان أعماقنا البكر تنمو يوماً بعد يوم نمواً سرطانياً مرعباً وتكاد تغطي معالمنا النفسية بأكملها .. اننا ننكر بإخلاص اننا عرفنا انساناً قط من قبل ..

تماسك .... بؤساء نحن لكننا لا نجرؤ على أن نقول ذلك، فمن المفروض اننا سعداء ... القطيع سعيد أبداً .. يتمرغ في وجود قطباه قصعة طعام وفراش ... يتهامس عنا .. نحن المرضى النادرين في المدينـــة الموبوءة ، الذين يدركون انهم مرضى حقاً ...

ماذا نقول للسعداء الذين يحملون طاعونهم جاهلين هانئين ؟ كيف نحدثهم عن سعادتنا يوم تبرعم في رعب أعماقنا شمس ما ؟ كيف نحدثهـــم عن الطمأنينة وهم الذين ما عرفوا القلق؟ كيف نحدثهم عن الشفاء وهم الذين ما أدركوا قط انهم مرضى ؟

ترانا نرضى بأن نحدثهم يوم تبرعم شمس في أعماقنا ؟

١٩٦٢

أمي يا لؤلؤة لن تعود

وراء رتابة حكايانا المسحوقة فوق جدران النوادي ، وراء ذعر أعيننا، وحقد أعين الآخرين المغروسة في نفوسنا ..

وراء خوفنا من لا شيء ومن كل شيء ..

وراء أزماتنا المطوطة وضحكاتنا الهلامية ..

وراء أقنعتنا الموناليزية والكرامازوفية ..

وراء هذا كله تنكمش (الأنا) في مهرجانات الرقيق والكوكتيل .. فإذا نحن آلهة ممسوخة في مرآبع الرياء .. أعيننا أنيقة ملونة ، لكنها بلا نبض ، بلا وهج ، بلا حياة .. تزاحمها عيون الآخرين في وجوهنا وضمائرنا .. واذا نحن حصيلة مشوهة لتشوه الآخرين .. واذا (الأنا) مصلوبة في أعماقنا .. واذا الحقيقة ، حقيقتنا ؛ وشم من جمر يدمغ الأنا .. يلسعنا .. يمزقنا ..

لكننا جبناء .

لكن عروقنا جذور خوف اعتادت صداقة الطحالب ..

ولكن الأرض الحقيقية ضاعت في زلزال القيم ..

لكننا نحن لم نعد نحن .. هل تجرؤ ، هل تجرؤ حقاً على أن تقول ما تريد ؟

* * *

فلنرفع أقنعتنا ولنبصق ضحكاتنا .. ولنقف في الريح كأعواد القصب.. عارين إلا من حقيقتنا .. عارين إلا من وشم الجمر .. يا أنت ، يا جمرة في وشم الجمر .. عيناك كالرمح وخازتان .. أحتضنهما منــذ طفولتي .. منذ بكى شاعر وناحت نجمة ، وقالوا انك رحلت .. عيناك كالنـــدم مؤلمتان .. جمرة في وشم الجمر صورتك .. أحملها لعنة محببة .. وأظـل أرقص لامبالية في مهرجان الرقيق والرياء .. من يجــرؤ على تعرية وشم الجمر .. من يجرؤ على أن يقول : هذا أنا ؟

* * *

فلنرفع أقنعتنا ولنبصق ضحكاتنا .

الثلج يحتضن المدينة .. يحتضن الدرب الى الغوطة والجبل الأسمر ..

غرفتها مغارة تبغ وعرق مضيء .. شفتاه عجينة من حكايا علي بابا، تسفحان السأم والحنين .. أيامه مكدسة بين نيران المدفأة التي أغمضت عيونها إلا عيناً ظلت تسكب وميض اللهب .. وكان يثرثر .. يكـذب .. ينثر الطيب .. والريح في الخواء تهزج ساخرة ..

سمعته يقول لها : أستطيــع أن أخرج الى العاصفة عارياً من أجــل عينيك .. أسير في درب الثلوج حتى الجبل وأقطف لك أعشاش النسور.. وضحكت وهي تقول : أخرج الى الناس عارياً من أقنعتك .. لأجلي .. هل تجرؤ ؟! هل تجرؤ على القول انك تكره زوجتك ؟ وتحبني أنا ؟

لم يجب . ظلت تضحك . ضحكاتها الشيطانية تمــلأه بإحساس من حقد مبهم عليها ، وانجذاب خفي مخيف اليها ..

يكرهها لأنها تجرؤ على أن تتحدى عيون الآخرين التي غرسوها فيها، وعلى أن تكون نفسها .. ولأنه استطاع أن يكون كل شيء وأي شيء.. إلا نفسه !

* * *

فلنقف في الريح كأعواد القصب .. عارين إلا من حقيقتنا ..

يا أنت يا جمرة في وشم الجمر .. لماذا لاأقول لهم اني وحيدة وحزينة ؟

قبرك محارة يا لؤلؤة لن تعود .. صائد اللؤلؤ والمرجان رحـل .. لملم أوتاره ولفافاته ورحــل ... يا أمي يا جمرة في وشم الجمر .. أعــين الآخرين في نفسي تمزقني ، تنهشني ، تصلبني رغم ايماني بأن ما يمليه وشم الجمر هو وحده الحقيقة والصواب .. وأنا أضاحكهم رغم كل شيء في مواكب القطيع منذ دهور .. يا غضبة دواة يسكبون حبرها لصبغ حذاء.. هكذا يولد الرعد بعد أن تنام المدينة !

انطق يا وشم الجمر بعد أن تنام المدينة .. منك ، منك وحـدك. ، من عارك وحقدهم ، من صدقك وكذبهم ، من جبروت ضعفك وسمو سقطتك ، من عريك ينبض الحرف ويتوهج ..

انطق يا وشم الجمر ،فجيل الخفاش ما زال ينسج شباك العــدم بين المكتب والمقهى ..

انطق يا وشم الجمر ، عيناه كالرمح تمزقاني ، تلهباني ، والآخرون يزرعون أحقادهم وجواسيسهم وآراءهم في نفسي .. انطق يا وشم الجمر لتتعرى الأنا بصدق في دوامات الوجود .. لن ينهش من إخلاصها جيل الخفاش .. لماذا لا أقول لهم اني وحيدة وحزينة ؟!

١٩٦١

ما في حدا .. لا تندهي .. ما في حدا

الصقيع العالق بين اهدابنا بدأ يذوب .. لماذا لا نرفع القنـــاع قليلاً لنمسح دموعنا ؟ طويلاً ضحكنا وتشاجرنا وعبثنا وما زلنـــا نضحك .. تحدثنا عن كامو والتصخم النقدي وثوب – لولو – عاري الظهر ومعجون الأسنان الجديد، ولم نتعب .. يرقصون حذاء يطأ على حذاء ..

لكن الصقيع العالق بين أهدابنا بدأ يذوب .. لماذا لا نرفع القناع قليلاً لنمسح دموعنا ؟

أحدهم يخاطب قناعي ويقول له – هل تسمحين بهذه الرقصة – ؟
اسمعه يجيب : شكراً لك .. لا أحب أن أرقص ...

وأغيب عن الجميع ... اخلفهم مع موسيقاهم وعطورهم ومشاغلهم ...
لم أعـــد اسمع سوى صوت فيروز الذي يصلني منتحباً في خواء شيطاني ويحملني ليرمي بـي الى كهف رعب ووحشة وظلال ... اسمعه يئن :

ما في حدا ... لا تندهي ، ما في حدا ...
عتمة الطريق .. وطير طاير عا الهدا ..
بابهم مسكر .. والعشب غطى الدرج ..
شو أوْلكم .. شو أوْلكم .. صاروا صدى .
وما في حدا ...

وينبسط درب المصير أمامي .. مظلماً مغرقاً في الوحشة .. السماء تندب نجومها التي انتحرت .. لا يؤنس وحشتها سوى طير ضال عبثاً يبحث عن غيمة يغازلها .. وأسير .. داره تلوح من بعيد ... اتسلق درجات معشوشبة رطبة .. الطحالب تتمزق تحت قدمي العاريتين ، وأحسها ديداناً هرمة انسلت من قبر ما .. وأشعر انني انزلق وأترنح وأهوي وأدمى وأتسلق .. هذا الباب يجب أن أدقه وان كنت واثقة من ان أحداً لن يجيب .. وأظل أتمزق واصعد بنزوة الشباب الى المجهول ، بحنيني المجنون الى ما وراء الأبواب المغلقة .. لكنهم رحلوا والباب قد نسي كيف ينفرج .. وتميد الأشياء وأهوي .. يبتلعني صمت كهوف لم يلثم فمها المفغور ضياء .. وأهوي عصوراً من عذاب .. لا أحد سوى وحشة سنونو أضاع ربيعه .. الدموع تسد منافذ القناع .. يجب أن لا أبكي لئلا أفسد كحله المتقن .. وتصرخ فيروز من جديد :

مع مين بدك ترجعي بعتمة طريق .. .
لا شاعلة دارهم ولا عندك رفيق ..
يا ريت ضوينا القنديل العتيق ...
بالقنطرة ، يمكن حدا كان اهتدى
وما في حدا !

ويمتد درب الرعب من جديد .. أذكر انه كان الى يمينها شاطىء أسود الرمال أبيض الزبد .. وكان للشاطىء شمس تتفتح في أحضانه السماوية كوردة بركان حمراء قبل أن تغرب عن الشاطىء الأسود .. وكان الى يسار الطريق غابة وقمر عابث يلهو بأراجيح الغمام .. وكانت الألحان الوديعة والضحكات وشهقات الفرح الطفولية تنفجر من كل شيء .. وعيناه بالقرب مني ، ليل منمنم يغمرني طيب دفئه ... لم يبق سواي في الدرب المظلم البعيد وقد بللني مطر مالح كالدموع ..

« مع مين بدك ترجعي بعتمة طريق » ...

وأحس يدي جافة كأشواك ما عرفت ما الندى .. يدي متعبة وضالة وضئيلة .. كيف أعود ؟ والى أين ؟ وأذكر حكايا جدتي عن ليلى التي ضلت طريقها في الغابة .. وأذكر أسفي ورعبي من أجلهـا .. ويغمرني إحساس طفولي عتيق بأنني أنا ليلى ، وان أطفال العالم جميعاً مـا حزنوا إلا من أجلي .. كان لي قنديل صغير .. أين القنديل .. تنشج فيروز :

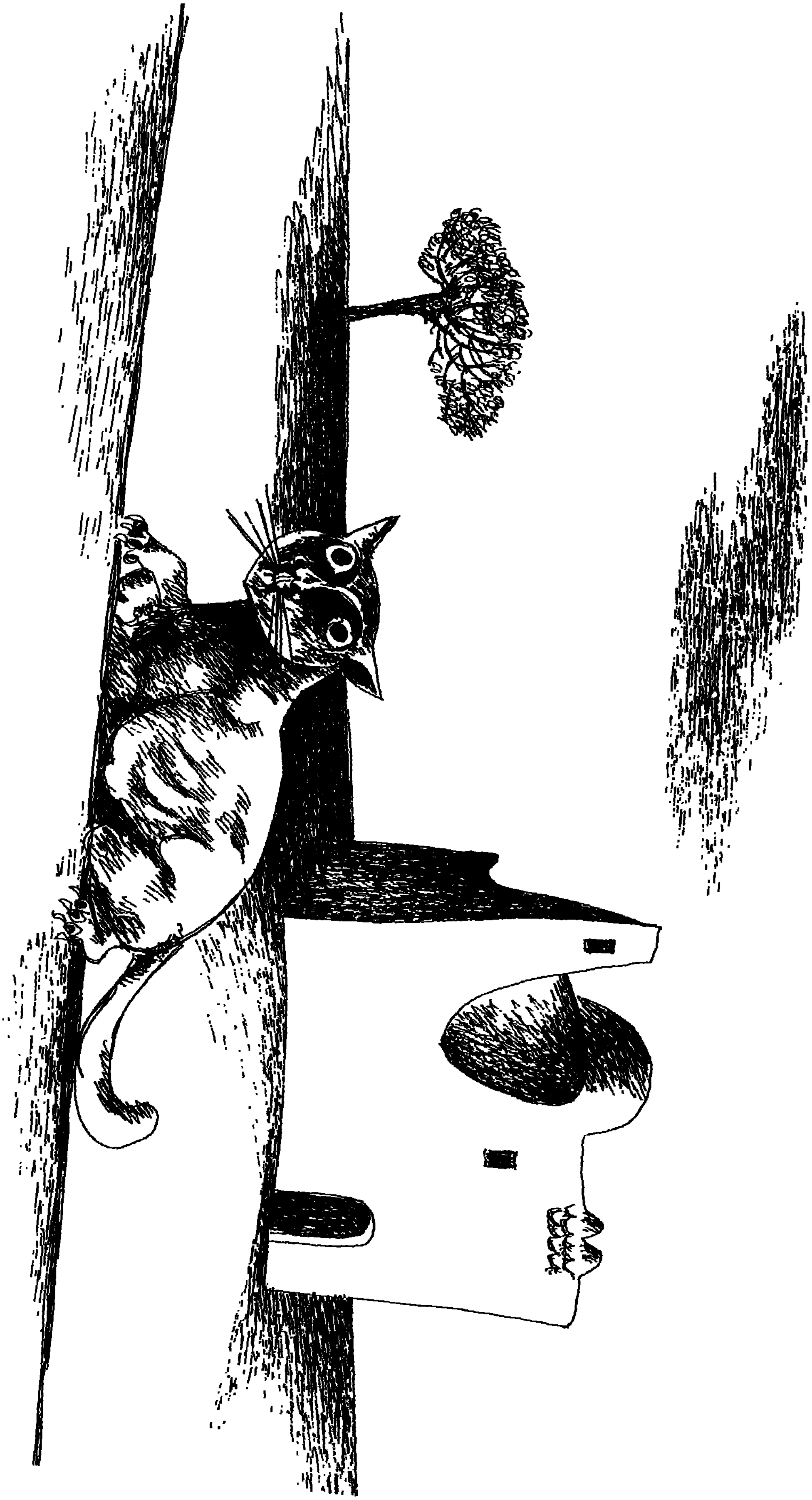
يا ريت ضوينا القنديل العتيق بالقنطرة ..
يمكن حدا .. كان اهتدى
وما في حدا ...

وأتعثر بقنديلي .. الصدأ قد أكل خديه .. الريح تلعق فتيله الجاف .. وأحميه بجسدي من المطر كي اشعله . لهبته تترنح ببؤس غانية عجوز ثم تنطفىء .. لا زيت فيه .. لا حياة فيه .. لا شيء سوى وحدة ووحشة وخيبة ملتاعة ...

ويوقظني صوت حبيب الى نفسي ، صوت أبي يقول: لماذا لا ترقصين؟

وأجيبه وأنا أحس انني متعبة : لأنه ... لأنـه – ما في حدا – ! ويضحك الأصدقاء . يبسم قناعي لهم كما ينفرج فم حصان ملجوم ... لو استطعت ان أزيح هذا القناع ، لو استطعت لمسحت دمعة .

١٩٦١



دع المساء الخريفي ينسكب
في فجوات العيون المتعبة

يا إلهي .. رحلة الصمت في صحارى الصبار أدمت وجودي وما ظفرت بواحة جواب .. لعنة (فاوست) تنبض في عروقي .. رأيته مصلوباً فوق الصبار قرب شهريار .. افسحا لي مكاناً بينهما .. لن أهرب !

يا إلهي .. دع المساء الخريفي ينسكب من فجوات العيون المتعبة ليغمر غموض أسئلتها بغموضه المخدر .. دع السحب تنبت في سمائنا وفي جفوننا.. تبرعم مطراً ينعش خيبة الضالين في متاهات اللاجواب .. الباحثـين عن الحقيقة .. الحاملين « لماذا ؟ » في موكب الثورة على وجود قطباه قصعة طعام وفراش .. المسحوقين تحت أثقال « لماذا ؟ » وصمت « لماذا ؟ » ..

دوامة الحياة اليومية وما تفرضه علينـا من التزامات طالمـا ابتلعتنا .. فتوطدت صداقتنا مكرهين مع المنبه والمفكرة ولفافات التبغ ..

سجدنا لبلاهة الدوامة في أفخر المطاعم . تشاجرنا . التقينا . سئمنا . تحدثنا عن قطة ميمي وفلسفـة سارتر وزيت الشعر الجديـد .. سئمنا . تلذذنا بسخافاتنا وثيابنا الجديدة . أحنينا رؤوسنا لشرطي السير .. أغرقتنا الدوامة في ضجيجها المخدر . فاستسلمنا لسكرتنا البلهاء هرباً من صحواتنا العقيمة ..

ما الذي يوقظنا من حين الى حين ؟ نترك مدينتنا ودوامتنا ونندلف في دروب صحارى الصبار باحثين عن شيطان نكتب له صكاً بدمنا ؟..

ما الذي يوقظ في أعماقنا شراسة وعل بري يريد أن يخترق الغابة ليعرف ما وراءها ، فيعلق قرناه في كثافة الأغصان الملتوية كملايين إشارات الاستفهام .. فيقف حزيناً كحسرة العقل الباحث عن جواب في مدارات النجوم بينما قيود البشرية البهيمية تشده الى التراب ..

ما الذي يوقظنا بين فترة وأخرى على بلاهة أيامنا ورتابتها ؟ حين نشعر فجأة ان الدوامة لم تعد تعنينا . وان الروابط الاجتماعية كافة خيوط عنكبوتية مفتعلة ..

نقف عارين من شهاداتنا وألقابنا في صحراء الصمت المجدبة ، نتلفت بارتياع والوعل البدائي في أعماقنا يصرخ : لماذا وجدنا ؟ من نحن ؟ الى أين ؟ لماذا لا نستطيع أن نرفض الموت ؟ وننبش الأرض بأصابعنا بحثاً عن جواب .. الأرض لا تلد إلا الديدان والصمت .. وأسئلتنا تنبت في صحارى اللاجواب غابات من صبار .. ونرى فاوست مصلوباً فوق الصبار وقد أفسح لنا مكاناً بينه وبين شهريار .. لن نهرب !

ذات ليلة ..

كنت أقرأ عن انسان اسمه « فرويد » قال انه وجد الجواب والعلة الأولى لكل شيء .. وقررت .. اذا تأكدت من أن فرويد وجد الجواب فسوف أنتحر ..

وقال انسان اسمه داروين انه وجد الجواب ..

وقال كثيرون انهم وجدوا الجواب .. واكتشفت انهم كانوا يغيرون في صيغة السؤال .. يعقدون ويدورون حول استدارة صحارى الصبار واللاجدوى .. وتعلمت الا اصدق شيئاً .. وتعلمت ان اهرب .. اهرب من رعب السؤال وطلاسم الجواب الى دوامة الحياة اليومية .. لأغرق في الحديث عن قطة ميمي وفلسفة كامو واسبح في صحن حساء شفاف في

أفخر مطاعم المدينة .. يا أصدقاء في فجر الصحوات الممزقة .. يا غرباء.. يا غارقين في شرانق الوحشة والعزلة ، وحدكم أحبائي .. مثلي تقاسون . وصمم الوجود وصمت الوجود ينفياننا الى عقم صحارى الصبار واللاجواب.. يا نحن .. يا حسرة آلهة محكوم عليها بأن تجوع وتتألم وتموت .. لا مفر من ذل سلاسل قصعة الطعام والفراش .. محكوم علينا بأن نهزم .. لكننا سننتصر بأن نتحدى رغم إيماننا سلفاً بأننا مهزومون .. وسنبحث ، ننبش أعواد الصبار بأيدينا وأهدابنا .. رغم إيماننا بأن لا جواب .. يا أنا .. يا عنيدة المجهول..لو وجدت شيطان الحقيقة لوقعت أي صك ولما رفضت أي مصير .. بين فاوست وشهريار متسع لنا جميعاً .. لن نهرب ، لكننا لن نرفض .. قد يكون ضرورياً ان تظل هنالك أسئلة بلا جواب كي نستمر في الحياة والكفاح والبحث ..

يا إلهي ! دع المساء الخريفي ينسكب من فجوات أعيننا المتعبة ، ليغمر غموض اسئلتها بغموضه المخدر .. دع السحب تنبت في سمائنا وفي جفوننا .. تبرعم مطراً ينعش خيبتنا ، نحن الضالين في متاهات اللاجواب.

١٩٦١



لأن أرانبي البيض .. ماتت

أخي سلمان

لم أعد أخشى شيئاً ، لأن أرانبي البيض ماتت أمـــام عيني ، ولأنني بكيتها ودفنتها .. ولأنني مع ذلك نجوت ..

أرانبي البيض . تلك الأرانب التي تحدث عنها جيورجيو في (الساعة الخامسة والعشرون) ..

الأرانب التي يحملها الرجال معهم في الغواصات،وعندما تبدأ بالاحتضار يعرفون انهم لن يستطيعوا البقاء تحت سطـح المـــاء أحياء أكثر من ست ساعات أخرى ؟!

متى وكيف ماتت ؟

كان ذلك في مثل هذا اليوم منذ عام .. كنت منهدة في غرفة كئيبة ، وأمامي أكداس من الكتب لم أقـرأ أكثرها .. وشبـــح الامتحان القريـب يتأرجح مع نسمات الصيف في طيات الستائر .. وأنا وحيدة .. مريضة .. ذابلة .. أترنح كشجرة عجوز سودتها الصاعقة .. قد بلغت نقطة الصفر .. نقطة التلاشي ...

دهمتني الشيخوخة قبل العشرين .. كنت أهوي الى أعمق أخاديد الوحشة والأسى .. وأرانبي البيض .. لو رأيت توجعها ولهاثها .. لو عرفت أنينها

وحشرجتها وهي تحتضر .. أمام عيني تحتضر .. كثير من الأرانب البيض التي ولدت معي .. حبت معي .. ذهبت معي الى مدرستي وضحكت كما لم يضحك طفل لتخابئي وألاعيبي .. عاشت معي أول حب وأول خيبة وأول غثيان .. قالوا لي صلي من أجل أرانبك البيض كي لا تموت .. وصليت .. السماء ظلت قبة فولاذ رمادية .. النجوم هاجرت كي لا ترى موت أرانبي البيض .. أحدها خر الى الأرض موجعاً فابتلعت الظلمة رماده وضياءه .. حاولت أن أكون فتاة طيبة كما علموني كي لا تموت أرانبي البيض .. كي تظل أبداً عيونها الحرزية لكآبتي .. تملأني بسعادة تفوح منها رائحة تراب ضمخه المطر ..

أيام طويلة ونحن نعيش في جو أصفر ، مريض ، مسعور الظلال كغروب في مدينة روعها الطاعون .. أيام طويلة والذين كان لهم في قلبنا موضع يتجاهلوننا .. أيام طويلة تحمل كل لحظة من لحظاتها فاجعة بفكرة.. برمز .. حطام اسطوانات محببة .. مرآة ممزقة الطلاء .. قلم جاف .. دواة سكبوا حبرها لصبغ حذاء ... تمثال زنجي تأكل الديدان ابتسامته... سمموها .. أرانبي البيض سمموها .. البرد الذي غاصت أظافره في دفء جلدها الأبيض ملأني برعدة ممزقة .. وكان العرق مع ذلك يبللني .. كثير من العرق الذي ضاع مع دموعي ... لست واثقة ان كنت قد بكيت أم لا .. كنت أبكي بمسامي .. كل حبة عرق كانت دمعة محمومة عمياء أضاعت طريقها الى عيني ..

أبداً لن أنسى ضحكات العابرين تلك الليلة تحت شرفتي .. أبداً لن أنسى ان أحداً لم يشعر بعذاب امرأة اطبقت بأسنانها على خشب النافذة كي لا تنادي أحداً .. لأنها تعرف ان أحداً لن يستجيب .. لو تمسح كف ذل مرضها وهزال وحشتها .. لو يطل من رسوم السقف وجه انسان .

أرانبي البيض ماتت تلك الليلة .. واكتشفت أشياء كثيرة صممت على

ان لا انساها اذا حدثت المعجزة ونجوت .. اكتشفت انني ذرة مظلمة ستظل أبداً بلا مدار .. بلا عناق مع شعاع .. الشمس كانت مطفأة حينما نظرت جيداً .. والكواكب تنتحب في هوات السماء السحيقة وأرانبي البيض ماتت دون أن تؤنس ذعري ابتسامة .. ماتت ..

لم يبق إلا أن انتظر الساعة الخامسة والعشرين .. لأموت ..

وماذا بعد ؟

لا شيء .. لم أمت . شفيت .

التهمت حروف كتبي . ليس في الوجود من يستحق ان أهبه فرحة الشماتة بهزيمتي .. درست بجميع حواسي .. بعذابي .. بفجيعة مراهقتي.. بأظافري .. اكتشفت ان اخطاء الأقوياء تسمى بالنوادر والطرف .

إن التجارب الممزقة تزيد في قوة الانسان إذا لم تقتله !

انها على الأقل تكشف له ان كان قادراً على ان يحيا أم لا .. انها دن النبيذ الاسبارطي الذي كانوا يغمسون فيه كل طفل يولد لهم .. فإذا عاش بعد هذه التجربة المرهقة فهو قوي البنية ويستحق حق الحياة.. وإلا فإنه يموت .. وخيباتنا وأحزاننا ومآتم أرانبنا البيض ليست إلا دنان القدر التي نهوي في لزوجة كوارثها. ونتخبط .. ونحترق .. ونتمزق .. وإذا نجونا .. فقد نجونا من ضعفنا وجوعنا الى عطف الآخرين .

١٩٦١

وجدت حقيقة في أن تذوب «الأنا» في «نحن» !

يا رفاق .. بحثاً عن حقيقة نحترمها ، نتشرد في الدروب كل على طريقته .. قد نبحث بحماسة جمرة شاردة ، أو ببرود سلحفاة .. قد يكون بحثنا عملية واعية مرهقة ، وقد يكون رغبة لاشعورية تطفو فوق تصرفاتنا ، ويكون تعبيرنا عنها خاطئاً أو غير خاطىء ...

كلنا يبحث عن حقيقة يسكن اليها ويرى وجوده من خلالها ... حبيبة وفية .. صديق .. موقد فيه نار .. فكرة .. مثل أعلى .. كلمة صادقة حتى لو كانت شتيمة .. أية حقيقة . وكلنا قد عرف مرارة الخيبة مرات ومرات حينما تتعرى الأشياء فجأة فتبدو بلا أقنعة وبلا أصباغ ، تسخر من طقوسنا وبخورنا ومراهقتنا ...

سأروي لك نكتة ، قد تقول انها قديمة ، وأنا أعرف ذلك ، ولا أرغب مطلقاً في إضحاكك .. لكني سأرويها .

اشترى رجل أربع تفاحات ، ولما عاد بها الى داره جلس ليأكلها . أمسك بسكين ، ولم يكد يقطع الأولى حتى وجد فيها دودة ، فرمى بها وأمسك بالثانية وقطعها ، فوجد فيها دودة ، فرمى بها وقطع الثالثة فلم تكن خيراً من سابقتيها .. ولما رأى انه لم يبق لديه سوى تفاحة واحدة ،

نهض وأطفأ النور ثم التهمها في الظلام كي لا يرى شيئاً ....

انها ليست نكتة ! انهـــا مأساة ! هل ترضى بأن تأكـل تفاحتك في الظلمة خوفاً من أن ترى ما يمكن أن يكون فيهـــا ، وتتـألم لفقدها ؟ هل أنت مع الشاعر العربـي الذي قال :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه ..

اننا جميعاً لا نملك إلا أن نمارس هذا الأسلوب في حياتنا اليومية .. قد نتجاهل كذبة صديق عزيز ونتركه ينتشي موهوماً بأنه استطاع خداعنا.. وقد نساير انساناً له في قلبنـــا موضع فنقول له « أنت على حق » كي نتحاشى مناقشة عقيمة .. من منا لم يطفىء النور مرات قبـــل أن يلتهم تفاحاته الأربع ؟ من منا لم يجلس الى نافذته في عتمة الليل ليغـازل ظل الجارة في الشرفة المقابلة ، ويكتب لها الأشعار ، ثم يغلق نافذته قبل أن ينام خوفاً من أن يكتشف في الصباح انه لم يكن يغازل سوى ثوبها الذي علقته في الشرفة ليلاً لتزيل منه رائحة (البنزين) الذي مسحت به بقعة في الـكم مثـــلاً ؟! لماذا أغلقنا النافذة مراراً ؟ كابرنا .. رفضنا بعناد طفل أن نفتح أعيننا على عري الأشياء .. هربنا منها ...

لكننا مع هذا كله نعيش خطاً عاماً مهما تلوينا وانحنينا وهجرنا الدرب ثم عدنا .. هذا الخط العام هو البحث عن حقيقة نهبها لهيب عمرنا كله.. نحيا من أجلها ..

وأنا قد وجدت الليلة حقيقة .. في بسمة طفل .. في زغردة عامل .. في ثورة مشعل،في التوهج العربيد لألعاب نارية على خد غيمة .. وجدت حقيقة : أهزوجة شعب . موجة فرح تسطو على أحزاني ، تريحني من كآبة فردية تذكرني بأن في هذا الوجود ، في مدينة ما ، في واد ما ، وراء ألف بحر يعج بأخطبوطات وحيتان وأفاع ، ووراء ألف غيمة مظلمة ، وقمم يلتقي فيها السحرة بعنزاتهم السود ومكانسهم الطائرة ، ووراء مدن

ترقص أنوارها بخلاعة لامبالية ، ان وراء هذا كله هلالاً شاباً ما زلت انتظر ان يبزغ في سمائي من جديد .. أمد نحوه يدي وبودي لـو أزيح بضعفها مدناً وجبالاً وبحاراً وأكداس ظلمات مطبقة .. سأحكي لك كيف التقيت بهذه الحقيقة . كانت الساعة تشير الى العاشرة ليلاً حينما تـأهبت لمغادرة عملي ، وكعـادتي جمعت أوراقي وأشيائي المبعثرة وخرجت الى المصعد .. أخذ يهوي والجدران تركض مذعورة نحو الأعـلى .. وتصيبني رعشة لذيذة .. ماذا لو يظل يهوي بلا توقف ، الى الأبد ؟ ماذا لـو يظل يعبر بهذا الصدق المضيء عن حقيقة أعماقي المظلمة ؟ منـذ عام وأنا أكتب .. بطرف قلمي الدقيق أحاول أن أحفر درب خلاصي في متاهات عمري الصخرية .. بطرف قلمي الدقيق أحاول أن انسج حقيقة : أجـد حقيقة ، أسجد لحقيقة .. منذ عام كانت التفاحات الأربع كلهـا نضرة ومتوردة ، لم أجرؤ على ان أقطعها بسكيني ، كنت خائفـة منها ، ولم أرض مع ذلك بإطفـاء النور كي التهمها في الظلام ... منذ عام وعوالم صمت محمومـة تهذي في أعماقي ، تتغـذى من وحشتي وعزلتي . توقف المصعد فجـأة وفتحت بابه انسانة تبتسم . جميلة هي الأشياء الباسمـة . خرجت الى الشارع ،وسرت لا أشعر بما حولي كعادتي .. لكنني استيقظت فجأة على بسمة طفل ،وصيحة فرح متوحدة ترددها ملايين الشفاه الراعشة ، ولحية بيضاء لعجوز ما رقصت منذ أمد بعيد .. وبدأت قوقعتي تـذوب وتتلاشى ، وأحسست انني موجة حماس في الخضم المتلاطم ، تملكتني نشوة الثورة ، نشوة الشعب المحتفل بذكرى ...

ووجدت حقيقة أحترمها وأزهـو باحترامي لها .. وجدتها في ثررة مشعل ، في التوهج العربيد لألعاب نارية على خد غيمة .. في اهزوجة حية لأمة .. وجدت حقيقة في ان تذوب (الانا) في (نحن) ، في إن تغيب جذوري مع اصالة جذورها وعراقتها ...

١٩٦١

تبدأ الحياة حينما يبدأ الصراع

يا صديقي ،

اكليل الخوف جدلناه من أشواك الرياء والتخاذل والضعف وحملناه .. جواز دخول الى سوق الغرور رفعناه .. مسحناه .. بالكحل بالعطر ، برشة رياء زيّناه.. في متاحف الوجوه الشمعية عرضناه،عند أحذية مصقولة عفرناه .. ليضحكوا .. ليقولوا انا مهذبون .. ليقولوا انا عاقلـــون .. ليمنحونا بركة حفلات – الكوكتيل – بركة التبغ والكافيار ..

اكليل الخوف جدلناه من ضعفي وضعفك .. من خلايا – الأنا – لسعها التخاذل المبتهل فاستحالت ضفائر سرطانات خوف .. الاكليل يتضخم، من خلايا السرطان يرتزق،بينما – الأنا – تذوب .

واتخذت الفواجع المصيرية في نفوسنا مظهراً اجتماعياً بليداً ..

ننظر الى الموت خلال اكليل السرطان المعطر ، فنراه صندوقاً مقفلاً ، نحصي النادبين وراءه ونبارك الميت تبعاً لعددهم وألقابهم .. ونرى العرس موائد .. والحب صفقة .. والاحترام ضريبة .

طويلاً جدلنا اكليل تخاذلنا خوفاً من ألف عين مقلها كحل ، وألف شفة تنشر الشائعات في ألف زقاق ملون .. خوفاً مـــن الوحش الخرافي الذي يرى ولا يبصر ، تسحره طية ثوب حسنة الكي ويثير وحشية أظافره صدق امرأة تجرؤ على ان تقول هذي انا .. تعبت .. اريد .. أرفض..

يا نحن .. أين أضعنا وجودنا ؟

آلهة التمر رفعناها .. في موكب القطيع سجدنا لبلاهتها .. من المقهى الى الحفل الى الشارع زحفنا وراءها .. رعونة الريح تحكمنا وسذاجة العاصفة تتلاعب بنا .. الاعرابي أكل آلهة التمر ، لو أكلنا آلهتنا الملونة لخنقتنا أصابع الغثيان .

حتى تطل نجمة في أفقنا .. هدف نحترمه .. نتمنى أن نمنحه وجودنا .. ونكتشف فجأة اننا لم نعد نملك ما نمنح .. أكاليل الخوف عششت في خلايانا .. غرست جذورها تلبلب في أعماقنا ..

وتبدأ الحياة حينما يبدأ الصراع .. حينما نمتلك القدرة والجرأة على أن نرى أين نحن فعلاً .. حينما تثور الأسئلة وتتدافع .. حينما نريد أو لا نريد .. نختار ونرفض . وننتزع الاكليل ، فنتحرر فجأة من الخوف الذي لم نكن لندركه ، ونرتمي في عذاب البحث عن وجودنا كي نمنح النجمة إياه .

١٩٦١

عدت اليك باهدابي المتكسرة

إليك يا أول حب وأغلى حب .. إليك يا أوفى وأصدق من أحببت، إليك أيها الغائب أرفع متعب همساتي .. إليك ألون لهفة الحرف ، ولك وحدك أنثر صمتي الضاج انشودة لاهثة التزف ..

كم رويت لهدوئك أحلام تفاهتي البلهاء ، وكانت عيناك تبسمان .. وكم أرهقت حكمتك بتسرعي وجهلي ، وكانت عيناك تبسمان .. وكم دمرت عهودنا بعنادي ، وظلت عيناك تبسمان ! واندفعت في الدروب كتلة تضج بحماس المراهقة ولهيب الاخلاص العفوي ، دققت باب المعرفة بأظافري ، بناري ، بنهمي المجنون لمعرفة حقيقة الأشياء . حقيقة الحبيب الذي يركع لي وللناس الذين يحيطون بي .. حقيقة الصداقة والوفاء والعبارات الناعمة التي يمسح بها الشبان وجهي :

واندفعت والتهبت .. تعثرت وانتصبت .. تأوهت وكتمت .. جريت وتعبت وارتميت .. وظلت عيناك تبسمان ! ورجعت .. رجعت قطة مبتلة أكلت منها عواصف الشتاء،عدت ولا شيء في العينين القلقتين سوى رماد تنتحب جمراته برعب مشمئز .. عدت بأصدافي الفارغة . وأهدابي المتكسرة..وأغمضت عيني كي لا أرى وجهك .. كنت أعرف ان عينيك تبسمان وكانت بسمتك الحانية أقسى من أي عتاب وأصدق من أقدس غفران .

عباراتك المطمئنة المشجعة ابتلعها صمت الضباب .. ضجيج البحار التي تصطخب بيننا والسهول والقمم التي تغرقنا تلتهم الصدى مترنحة سكرى وأظل هنا وحدي .. تولد همساتك في فراغي وتعربد في صمت غرفتي .. وأظل أحلم بدفء أعماقك .. وبالعينين أبداً تبسمان لي . كل شيء زائف أيها الغالي ان لم تشاركني به . التصفيق أجوف الرنين .

الهتاف متعب كالأنين .. وكل ليل فيه من آهتي ألف رعشة حنين ..

من أعماق ظلمة وحشتي أهتف باسمك .. من مغاور خيبتي الدامية أنادي العينين اللتين تبسمان والصدر الحاني ، استرجع ذكرى ليال طوال حملتني فيها بين ذراعيك .. أنت يا أبي المسافر .. يا أغلى أب وأوفى صديق .. إليك أرفع شوقي الذبيح لحناً ملهوفاً يردد ويعيد : ستظل عيناك تبسمان يا أبي .. ستظل عيناك تبسمان ! لا تخف علي بعد الآن .

١٩٦٠

حتى تظل نجمة

اني أتساءل أحياناً : لماذا يلذ لي أن أضفي عليك يا حبيبي كثيراً من صفات الكمال ؟ لماذا أحرمك من انسانيتك وأكرهك على الارتقاء إلى مصاف الآلهة،أو على الأقل الى مصاف أبطال روايات العصور الوسطى ؟ لماذا أرفض أن أرى فيك ما أكره ؟ لماذا أتعامى ؟

هل هي بقية من لعنة الكمال ؟ من تحرقنا المبهم ورغبتنا اللاواعية في أن نكون شيئاً مثالياً ؟ تلك الرغبة التي تصطدم بالواقع في أيام مراهقتنا الأولى عندما نكتشف انه محكوم علينا بأن لا نكون إلا بشراً، لا نستطيع الارتقاء الى مصاف الآلهة لنهرب من الموت ، ولا نستطيع الهبوط الى بهيمية الحيوانات لنتحرر من الألم .. نجرجر قيودهما في درب مظلمة البداية والنهاية ..

فهل في توهمنا — مع سابق تصميم وتصور - بأن الانسان الذي نحب كامل نوع من التعويض ؟ أم اننا بحاجة الى أن نحب الأشياء أكثر مما نحن بحاجة الى أن تحبنا ؟

نريد أن نجد شيئاً نغمره بسيل العواطف الغامضة التي تتدفق من أعماقنا بركانية عمياء..وحاجتنا الى إيجاد من يستحق هذه العواطف مع تقديرنا الأناني لقيمتها يجعلنا نأبى أن نمنحها إلا لشبه إله .. ونحاول خلق شبه الإله

هذا .. نقيده بشكل معين من التصرفات التي نؤمن بها لأنانيتنا ارتقاءه الى مصاف الآلهة .. وهكذا نمارس ذروة الأنانية في أقصى لحظات تفانينا من أجله لأننا ننتقل من حبه هو نفسه الى عبادة الصورة المدهشة التي رسمناها له في أذهاننا ..

ترى لو منح كل منا فرصة يرى فيها « التابو » الذي صنعه بنفسه على حقيقته ، على حقيقته فعلاً ، هل يرضى الكثيرون بهذه التجربة الممزقة التي قد تطيح بشيء نحن بحاجة اليه كي نحبه ؟ أليس الحب جميلاً بما فيه من تجاهل وأوهام ؟ أليس في الحب من أنفسنا أكثر مما فيه من حقيقة الآخرين ؟

أنا قد منحت الفرصة لأعرف حقيقة التابو الذي قدست لأضعه في إطاره الانساني المادي الواقعي ، وأنا قد رفضتها ! لم أجرؤ .. بكل بساطة لم أجرؤ ! أحرقت المصنف دون أن أفتحه ... أمي ! لم أعرفها لكنني واثقة من انه كانت لي أم . سمعت الناس يقولون ان المدينة كلها بكت يوم ماتت،وان أمواج البحر منذ ذلك اليوم تتسلل في الليالي المظلمة لتتمسح برخام قبرها .. أبي لم يحدثني عنها طيلة هذه الأعوام إلا نادراً.. حدثني عنها يوم ثار بسبب تصرفاتي وقال اني عنيدة ومتمردة .. ولم أنكر. ولكنه هدأ بعد لحظات وبدأ يحدثني بحنان ندي عن عناد أمي وتمردها..

ومنذ أعوام مغرقة في البعد ، أذكر اني كنت أسافر ليلاً معه .. السماء كانت مظلمة وجوفاء .. نجمة واحدة ظلت تضيء ، حلوة وحشية البريق .. سألته بعبث طفلة : ما اسم هذه النجمة ؟ قال بخشوع كاهن: هذه هي أملك ! وليلتها مزقت النجمة مدارها لتولد من جديد في ظلمة أعماقي ولأطلق عليها اسم أمي .

ومرت الأعوام وأمي نجمتي التي لم تهو . وأمي عروس الليل الهاربة من شرنقة شرقية . وأحببتها . لماذا ؟ لا يهمني أن أعرف . جعلت منها كل رائع في الوجود كي أحبها . وأحببتها لأنها كذلك .. كان علي أن

أحب انساناً ما دون أن أخشى من عدم قدرته على الارتقاء الى مصاف الآلهة .. أنانيتي كانت بحاجة الى الحبيب الذي تحرمه من حق الخطأ والألم والموت .. ولم أجد سواها ..

ومنذ أيام جاء أبي ووضع بين يدي مظروفاً مغلقاً وقال « خذي هذا المظروف .. لقد أخفيت لك فيه صور أمك ومذكراتها !! أظن انك اليوم جديرة به ! ستعرفين عنها شيئاً ما .. »

وخرج ..! وبقيت وحدي أحدق بذعر الى المغلف العتيق .. وأتساءل.. أعرف عنها شيئاً ما ؟ وأنا التي رسمت ملامح وجهها الأسمر في طيات الستائر ليلة بعد ليلة .. أعرف عنها شيئاً ما ؟ وأنا التي طالما خلقت صدرها من عتمة غرفتي ، ودفنت فيه وجهي وانتحبت أيام وحشتي ... وأنا التي طالما حدثتها في أوهامي عن وحدتي .. وأنا التي مجدتها وألّهتها كي أعبدها .. وأنا التي نحتّ منها ما أهرب اليه حينما تفور ديدان الزيف وتطمس الأشياء ..

ماذا أفعل ؟ هل أفتح المظروف لأرى أن لأمي صورة،وللناس كلهم صوراً ؟ وأرى في مذكراتها انها تجوع وتغضب وتخطىء وتحقد كأي عابر يصفر في الشارع ؟

ماذا ؟ أأقرأ مذكراتها لانتزعها من حيث تلتمع في السماء ، نجمة وحشية الأضواء ، ولأضعها في إطارها الاجتماعي العادي ؟ لا .. لا أريد أن أصدق ..

وبحرص وثني على مقدساته ، أحرقت المغلف ولم أفتحه !! وظلت أمي تلتمع في ركن السماء نجمة وحشية الأضواء ..

١٩٦٠

يا صائد المرجان

أيها الغريب الجريء .. رسالتك أجمل من أن تكون حقيقة وأصدق من أن تكون خيالاً ، فيها وعد بربيع جديد يورق براري عمري .. وعد بحب .. وعد ربيعي يرقص بين السطور .. تتسلق وروده المجدولة خضرة السطور وتنزلق بين الكلمات .. تدور حول الجمل، يترسب عبيرها في النقاط المبعثرة ، يترنح مع تهدج التعبير ، يتناثر في فضاء رسالتك البوهيمية المسكرة .. برودي يغلي .. بسمة منسية تتسلل بفجور لتعربد فوق شفتي وتنثر شعرها إشاعات أمل في ملامح وجهي .. فأنتشي .. أنتشي .. وتنتشي الرسالة العجيبة .. سطورها العذبة ترقص مجنونة وتكاد تقفز من الورق الأبله لتطوق جيدي وعنقي ، تدور حول خصري تلثم أهدابي .. تختلط بأنفاسي وتنسل الى داخلي لتغرق في الأعماق . وأكاد أسمع صدى ضحكتك مبهمة الاثارة ، وأود أن ألثم كلماتك .. أمتص وعودها .. أشمها ، أضمها بقسوة ، أمضغها بنهم ، أبعثر سطورها في أضلعي ، أمزق حروفها ذرات أنثرها في دمي ، أحرقها مع لوعتي بخوراً صنوبري الأريج ..

وأجلس لأتأمل انصهار الخيال والحقيقة .. تعانق سحر الشرق وبساطة الغرب .. غموض الحلم وصلابة الواقع .. وأشق دروب

أوهـامي اليك ، أكـداس الظلام تنحسر عـن طريقي .. أحجـار الشارع تود لو تلثم قدمي الصغيرة التي تطير وتكـاد لا تمس من الأرض شيئاً .. واصل إليك . يبسم بابك . ترقص المدادة السكرى على جدرانك العقيقية .. تتمسح بخشب نافـذتك وتنبهك الى وجودي .. لهفة عينيك تخترق الظلام وتتحسس خدي الملتهبين بشوق متعب ، العنـدليب يدفيء حبيبته تحت جناحه في هناء مترف .. وأجلس لأكتب اليك ، لأحـدثك عن هذا كله .. ولكن ..

« قلمي ينزف مطر القدر الأزرق وأنا أكتب اليك :

أيهـا الغريب الجريء ، لو كنت تدري أحلامي ساعة مددت يدك وصافحتني مودعاً لما تخليت عنها أبداً .. لو كنت تدري حنـان ناري ، لو كنت تسمع هدير أغواري ، لـو كنت تحس تفجري ودماري لمـا مضيت أبداً » .

فجأة ، أتوقف عن الكتابة اليك ، تهب نسمة مسمومة من الماضي ، فحيحها يزحف وئيداً في أذني ، قاسي الليونة ، جـارح اللزوجة ... يستيقظ ماضي الحية ويمد اخطبوطه أذرعاً من ندم .. من عدم .. أذرعاً من نزف أعوامي ، من ذعر غدي ، من عجزي عن الثقة برجل!

وأدرك انني أضعف من أن أحب وأجبن من أن أثق .. وانني راضية بضعفي ، بوحدتي ووحشتي .. أهذي موهنة .. أرقص ممزقة مشتتة، لكنني راضية بلوعتي ولهفتي .. راضية بأنامل الصمت تدغدغ جرحي .. عطـر السكينة يخدر نزقي بينما أهـداب الليـل الحانية تخفي كل شيء .. وأمزق رسالتي اليك بعد أن ولدت ميتة !

ابعثر في الظلام نزق الحلم ونشوة اللقاء .. أدمر دارك المخمليـة أرجوحة الشمس.. انثر جدرانك المرجانية مسكبة القمر .. أقطع مدادتك الواشية وأخنق لهفتي الطفلة .. أبكي الأمنية التي ماتت في صقيع أيامي .. ماتت قبل أن تولد !

لن أجيب على رسالتك فأنا لا أجرؤ على التصديق .. ويوم أراك ، سأقف أمامك ضاحكة مخادعة .. كأني ما اجتررت حروفك بنهم عطش، كأني ما تمنيت أن أسكب نفسي في قبضتك ساعة صافحتني مودعاً .. ويوم ألقاك لن أقول شيئاً .. لكن ذرات صمتي المتعبة ستظل تهذي في عينيك: « هل جئت تصيد اللؤلؤ في أعماقي الدامية ؟ أجب يا غيمة العطر ، هل جئت تنهب بيادر صمتي وتوقظ أهداب سكينتي الغافية ؟ رفقاً بالجرح النائم أيها الغريب ، رفقاً بقوارير الطيب الملونة، بذعر الأطلال الرمادية وأنات الشوق اللاهب .. رفقاً بقداسة وحدتي وخيبتي يا صائد المرجان .

١٩٦٠

خلود اللحظة باستنفادها

للحزن مفعول الخمرة في نفسي ، حيث تعربد الأفكار في رأسي كشعر الجنيات المتطاير ، وأشعر بحاجة الى عينيك العمقتين اللتين لا أدري ماذا وجدت فيهما ولكنهما أيقظتا الجراح في نفسي . كنا نثرثر والرفاق،وصدى التفاهة يتناثر مع ضحكاتنا البلهاء المدوية ، حين التقت نظراتنا فجـأة . بصورة غير عادية .. ورأيت حقيقتي في عينيك ! ويا لها من لحظة مؤلمة ممزقة حين يومض فجر المعرفة في القلب البشري الضال !

وهوت أفكاري شهباً محرقة تصرخ بي « ليته كان لك دائماً » ، وسألتني : « ماذا بك ؟ » .

وتسلل صوت آلي من جـوفي وأجاب « لا شيء ! » .. أجل ! لا شيء يا صديقي ، كـل ما في الأمـر انني أحسست فجأة ان كل ما حولي يغوص ، والجلبة تضيع ، وأعماقي تدمى حينما تمنيت لـو انك كنت لي أبداً .. ان فكرة الاستمرار المثالية الخيالية تعاودني حيناً بعـد حين .. انها بقية من بقايا حنين المراهقة الأبله لوضع خطط للمستقبل .. وكأنني أملك منك — أو من نفسي — شيئاً .. وأشعر بطفولتي المزمنـة تتأوه كلما تمنيت لو انك كنت لي دائماً ..

يا صديقي .. كل ما اجرؤ على أن أحلم به ، هو مجرد لحظات عابرة

مع عينيك ، فنحن مخلوقات مشوهة .. بلا غد .. بلا إرادة .. بلا حرية.. ألعوبة للآلهة الثملة .. كل ما نزرعه ونحن نحلم تحصده رياح القدر حينما تلهو . ولكننا نكتشف هذا كله بعد فوات الأوان ، فقد علمونا منذ الطفولة ان الزواج يجب ان يتوج الحب . لماذا ؟ لأن الزواج بنظرهم يعني الاستمرار والضمانة .. واننا إذا أردنا لحبنا الخلود فعلينا بالزواج !

أما أنا يا صديقي ، فلن يدور الاستمرار بخلدي بعد الآن ، لن أشوه لحظاتنا الحلوة بالتفكير العقيم في المستقبل الذي أعرف جيداً انني أتفه من ان احرك بيدي الواهية صخرة من صخوره .. الاستمرار مفقود في عالمنا البشري ، انه وهم المراهقة ! في لقاء نقسم على الوفاء وعلى ألا تفرقنا قوة في الأرض والسماء .. ويضحك منا بسخرية شيء مبهم في أعماقنا ، فنحن لا نملك شيئاً في عالمنا هذا ، حتى ولا أنفسنا،ولا حريتنا في أن نموت متى شئنا — أو على الأقل إذا شئنا — ، لنا ذاتنا في حدود اللحظة التي نعيشها فكيف نهب لسوانا — حين نقسم على الوفاء — شيئاً لا نملكه ؟

إلهية هي تلك الساعة التي تؤمن فيها معي بأنه قد لا يكون لنا غد.. فتعطي وتجزل في العطاء ، وتمنحني من نفسك وروحك وكيانك.. وتعطي أكثر مما تستطيع ! أنا احبك بضعفي وحيرتي وعجزي وضياعي .. أودّ ان أهبك في اللحظة التي — نكون — فيها كل طاقتي للحب .. أما إذا جاء الغد — وقد لا يجيء — وجدتني أمنحك من جديد كل ما لدي .. فالانسان لا ينفد ، وأنا لا أعرف العطاء في الحب بالتقسيط ، ولا أريد ثمن حبي عقد زواج !

الحب العابر هو الشيء الوحيد الذي يملكه الإنسان ، وبالتالي يستطيع ان يمنحه .. وكل ما يقوله من بعد سراب . الفضيلة هي الاعتراف بالحقيقة التي صنعها القدر وفرضها علينا ، ومهما كانت هذه الحقيقة شوهاء، فإنها بنظري خير من الأوهام المثالية والخدع التي نتبجح بها ونحن نعرف

اننا كاذبون ، ونحن نعرف ان انسانيتنا الضعيفة عاجزة عن منح اللحظة صفة الاستمرار وبالتالي الخلود !

انا قادرة على أن أرسم الخلود في دربنا القصير ، فيضج جبين الفراغ الميت ويتـأوه السكون ويتلوى .. وتصرخ يا صديقي بملء فمك : أنا موجود ، أنا أحيا .. أحس الأرض صلبة تحت قدمي .. وأرى ان في السماء نجوماً حية ترتعش وتغمز لي .. وهـذا الاحساس ليس بقليل .. فأنا ما شعرت قط ان الأرض صلبة تحت قدمي .. لكنني معلقة في فضاء متوتر مشدود .. أخشى السقوط كل لحظة ، او انني في سقوط مستمر دون أن أدري ، لأنني لا اصطدم بشيء .. لا شيء حولنا يا صديقي ! نحن ذرتان ضائعتان في الفضاء كملايين الشهب المتناثرة المحترقة .. كرماد سيجارة شيطانية يتلذذ بتدخينها قدرنا المريع !

وفي لحظاتنا الخالدة المشحونة بالعمق والصـدق ، والاحساس المشترك بالعبث والضياع ، في مثل هذه اللحظات الخالدة ، حينما تتشابك أيدينا وقلوبنا ، نحس ان الأرض الطيبة تحنو على أقدامنا المتشققة التي طالما انهكها التخبط في الفراغ الوخاز وأدمتها خيوط العادات والتقاليد التي نعلق بهـا بلا نهاية ..

ويوقظني صوتك من خواطري وأنت تسأل :

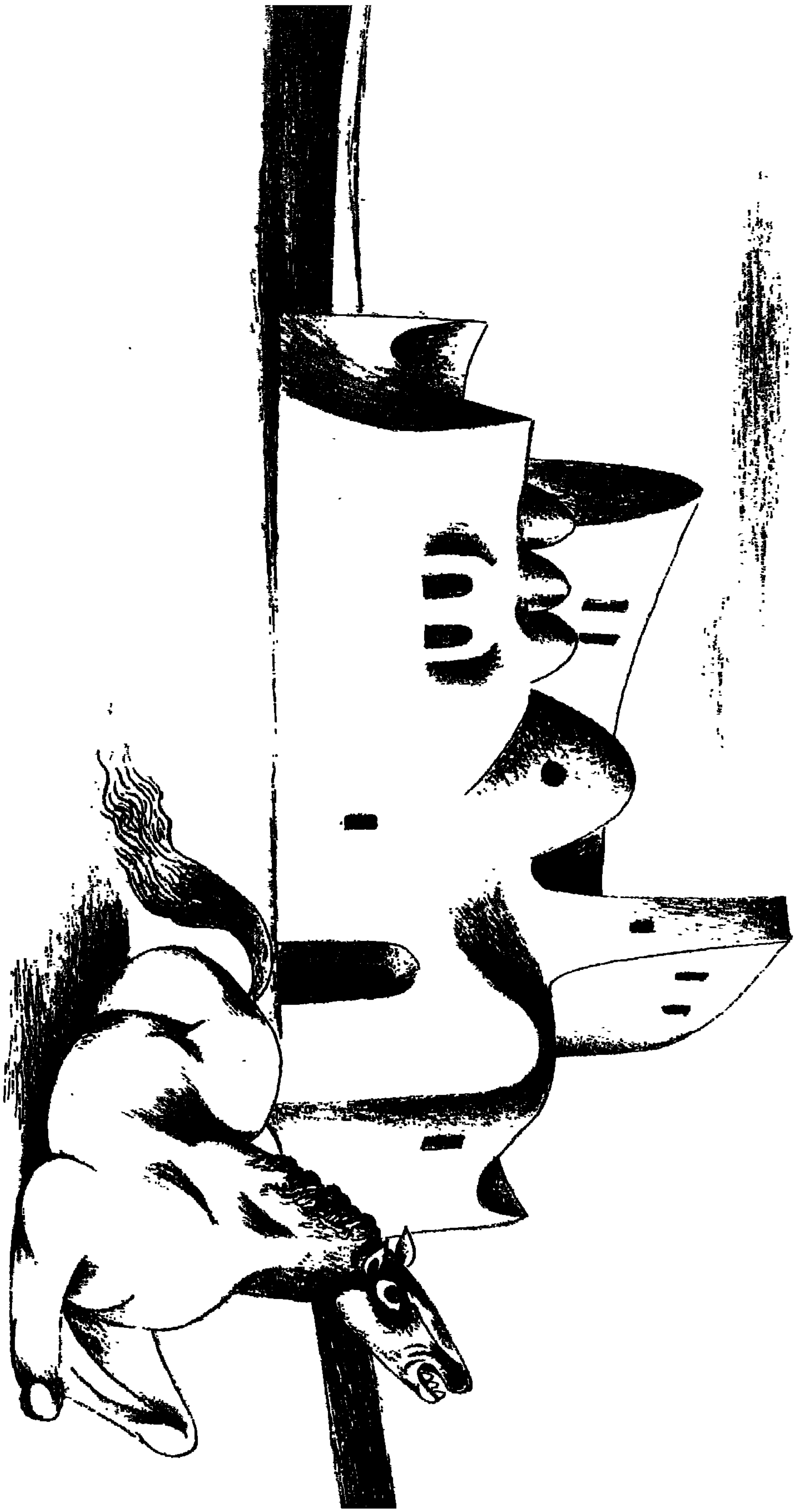
— ماذا بك ؟

يجيبك الصوت التقليدي :

— لا شيء يا صديقي !

وأحدق من جديد في عينيك وكأنني أتسلق نظراتك ، وأتسرب من خلالها الى داخلك .. ويخيل إلي ان بسمتك تضيء ! وأحس أنك قريب قريب .. وان الأرض صلبة تحت قدمي بعد طول تشرد وضياع .

١٩٦٠



حب طفولي

بوحشة سنونو أضاع ربيعه أكتب عنك يا سيدي ، ولا أملك سوى جمرة القلم ألهبها بشوقي وأذيبها على الورق بحنيني . حرقـة مشبوبة هي أيامي من دونك . أكره أن أرى الليل يظلم وسهول القمر تغمز من بعيد.. وأنت بعيد ، بعيد .

وأكره أن أرى انني طفلة . أفيض شباباً وحيوية . دون أن تضمني يداك القويتان .. وتهصرا الشوق والحنين .. أكره بعدك، انه يجعلني شديدة الحساسية بمرور الزمن .. يملأني بشعور ووعي مبالغ به بالساعات والدقائق .

ما زال صدى صوتك الحار في أذني . ما زالت قسوة يديك في دمي . لا ، لا تقل انك لن تعود ، فأنا أنتظرك . لا تقـل انك صممت على البقاء هناك .. فالليل يتأوه ويتلوى في صدري. وسهول القمر تزفر أنفاسها وفي كل نسمة نداء حار لنا .. حار كنظراتك الغامضة، كرجولتك المدمرة.

أحن الى أن أحس انك قريب ، تتحرك حولي .. أسمع الناس يحدثون عنك وعن مغامراتك .. أسمع حسادك ينتقدونك .. أرى الفتيات يتهافتن عليك ، وأنا أرقبك بلذة وفرح لأنك موجود ، لأنـني عرفتك وأنست بك ، وأحسست بالطمأنينة في وجودك .

ويوم تعود يا سيدي ، يوم تعود لن أقفز لأقف على قدميك، وأشد عنقي الى آخره كي أقبل جبينك .. لن أنهدّ على صدرك لأريح رأسي

المتعب وأبكي للمرة الأولى منذ أعوام . سأقف أمامك طفلة خرساء، وأمد لك يداً ميتة لأصافحك .. لأمس يدك دون أن أرتعش .. سأحدق فيك بوجه أبله وعينين باردتين.. كأني ما لثمت رأسك ألف ألف مرة في أوهامي .. وقد أجد صوتاً يقول لك — « الحمد لله على السلامة » — .. ثم أجلس.. وأتشاغل عنك كأنني ما تمنيت أن أهبك عمري كله لتعود سالماً .. كأنني ما تساءلت كل لحظة ترى أي سماء تظللك ؟ وأي عيون ترقب سيجارتك وهي تحترق بين شفتيك ، فتثير في النفس حنيناً الى الحريق بين الشفتين.. من يطفىء لك لفافتك — قبل أن تنتهي — بلذة طفولية غريبـــة .. من يتلذذ بجو الرجولة الساحق المبهم الذي يخلقه وجودك في كل مكان ؟

ولعلك ستقول بعد أن تلقاني كما قلت دائماً .. « يا لها من طفلة .. لا تهتم بغيابـي ولا تحس بوجودي .. سأنتظر حتى تكبر » .. فالصدق في نظرك طفولة .. والعفوية سذاجة .. والكتمان نقص في الاحساس .. والهدوء موت الشعور .

صديقي ، وأي حق لي في أن أناديك صديقي ؟ لا أدري، لعله شبح حنان ومض يوماً في عينيك .. لعله ظل لهفة صادقة صبغت حديثك ذات مرة .. لعلها بسمة ود وانس رقصت على شفتيك .. لعله ضياعي وحنيني اليك .

صديقي .. لماذا ذهبت وخلفتني هنا تائهة أحـــلم بحنانك وإرشادك ؟ ضائعة في عاصفة مجنونة .. أحس بأنك مسؤول عني أنت الذي رميت بـي في هذه الدوامة . أنت الذي جعلتني أبحث عن النسيان في أي قلب .

طفلة بريئة أنا أمامك .. ككل امرأة تشعر بأحساس صادق.. وامرأة محنكة أنا أمامهم .. أمام عشرات العيون الشرهة التي تتمسح بـي بشهوة. عشرات الشبان الذين يربضون أمام قدمي بأفواه مفتوحة ترقب لحمـــي الأسمر لتنهشه .

أحببتك ؟ لا يا سيدي .. لست مراهقة لأقول اني أحبك .. الحب

مفهومه الخاص عندي .. انه اكتمال وتمام لا يتحقق إلا بوجود اثنين .. قلبين .. جسدين .. رضا وتقبّل روحين .. أما اللهفة والرغبة واللوعة من جانب واحد فأنا لا أدعوها حباً لأنني لا أؤمن بالاكتفاء الذاتي في الغرام.. أتراه شروع في حبك ؟ أم حب عن سابق تصور وتصميم ؟ أم انه مجرد أمل في لقاء عابر مع رجل رائع الذكاء والتكوين ، رائع الرجولة ؟ لا لا أظن ، وإلا لما فشلت في ملء فراغك بسواك ، والفراغ الذي خلفته لم يملأه شاب بعد ، ولا مغامرة ، ولا أحلم بأن يعوضني عن غيابك كائن كان .. انك لم تعد بالنسبة لي مجرد رجل أو مغامرة ، أو حلم ليلة صيف ،لا أدري لماذا أضحيت كل ما أحببت ذات يوم وفقدت..وكل ما كنت أتمني أن أملك وفشلت .. أضحيتَ جزءاً من حرقة الماضي ولوعة الحاضر .. وأمل المستقبل .. أضحيت جزءاً من كياني .. من أفراحي النفسية الداخلية ، ودواماتي الذاتية ، أضحيت الحنان بنظري ، الصديق .. المرفأ .. الأمان .

انك لم تعاملني كصديق .. بل أكثر من صديق..ولم تعاملني كرجل بل كأسمى من رجل .. ومع ذلك لم تعاملني كرجل أو كصديق وهنا بعض لوعتي .. يا لغرابتي وحيرتي ماذا أريد ؟ ماذا أريد منك أيها الغائب البعيد ؟ لا أدري يا سيدي لا أدري .

سبعة أيام ، كانت فجر مأساتي الجديدة ، لم أدر وأنا أعيشها معك كم كنت سعيدة .. سبعة أيام تلعب بقدري،سبع بسمات منك بعثت حطامي وألهبت رمادي .. سبعة أيام يا سيدي ، فداك نفسي عن كل لحظة .. عن كل ضحكة صادقة نبعت من أعماق فؤادي لنكاتك ، عن كل لفتة حانية أدفأتني بها عيناك .. سبعة أيام يا سيدي شيدت قصوراً وهدمت قصوراً .. سبعة ايام ! لهف روحي .. ليتها كانت دهوراً ..

ويوم مضيت بدون وداع ، عدت كما كنت ، شهاباً منطفئاً يهوي في ظلمات عمر ضائع .. ويوم مضيت سلبتني سلامي وهدوئي ، وأيقظت

فعاليّتي وضجيجي . فأحسست انني كتلة من حيوية وصخب وانفعال ، وان علي أن أفعل شيئاً،أن أنسى .. أن أدفن عذابي في قلوب الآخرين.. وفتحت الجراح في قلوب كثيرة ، ولكنني فشلت في مداواة جراحي .. خطر لي أن أتبعك الى حيث ذهبت .. الى أي مكان الى الجحيم .. ولكن ماذا تقول اذا رأيتني أفتح باب غرفتك في الفندق كقطة متعبة دامعة العينين ؟ وماذا أقول ؟ أأقول انـي لا أحبك .. ولكنني تبعتك لأنني أطمئن اليك وآنس بصحبتك ؟ هل يمكنك أن تفهم انك كنزي الثمين وجزيرتي المشمسة المرجانية لمجرد انني أرتاح لك .. لوجهك القوي الحنون .. ليديك الكبيرتين العجيبتين .. عجيب ! كل ما فيك عجيب! والجو الذي تخلقه حولك عجيب والطريقة التي تدخن بها لفافتك – وكأنك تضم امرأة – عجيبة .. واحساسي تجاهك أعجب ما في الأمر ..

أمنيتي أن تكون بجانبي،فأنا أتوق للحريق بين الشفتين .. أن ترعاني وتبسم لي ، أن أقول لعينيك بكل جرأة دون أن أخشى فقدانك : « لست طفلة كما تعتقد ، اقترب مني أكثر ، فما زال في المرأة نيران لم تجربها .. لم تكتشفها نظراتك الخبيرة ، اقترب لأعلمك ، أنا الطفلة، كيف تكون المرأة الحقيقية حينما تحب بصدق .. » ويوم تعود يا صديقي.. يوم تعود .. سأمد لك يداً ميتة لأصافحك .. وسأحدق في وجهك المعبود بعينين زجاجيتين .. وقد أجد بعض الشجاعة لأردد عبارة تقليدية (الحمد لله على السلامة) .. وستقول في نفسك « يا لها من طفلة باردة الاحساس.. ذهابي وعودتي لديها سواء .. سأنتظر حتى تكبر .. »

وستكبر الجراح يا سيدي .. ويزيد صمتي حتى تكبر أنت .. وتسمع النداء الأخرس المحموم .. وتفهم كيف تحب المرأة بطفولتها ..

١٩٦٠

فهرست

نشرت محتويات هذا
الكتاب في الصحف التالية

الحوادث اللبنانية	الأخبار السورية
الاسبوع العربي »	الوحدة »
البيرق »	النصر »
لسان الحال »	العلم »
الجمهورية »	صوت العرب »
الأحد »	الأيام »
شهرزاد »	